فالنتين راسبوتين

في المستشفى

ترجمة

أشرف الصباغ

فى المستشفى

فالنتين راسبوتين

ترجمة

أشرف الصباغ

آفاق للنشر والتوزيع

♦ المؤلف : فالنتين راسبوتين
♦ ترجمة : أشرف الصباغ
♦ العنوان : فى المستشفى
♦ تصميم الغلاف : آفاق
♦ الطبعة : الأولى ٢٠٠٩
♦ مستشار النشر : سوسن بشير
♦ المدير المسئول : مصطفى الشيخ

♦ **Author** : Valentin Rasputin
♦ **Translation** : Ashraf El Sabbagh
♦ **Title** : In hospital
♦ **Cover Design by** : Afaq
♦ **First Edition** : 2009
Publication Consultant : Sawsan Bashier
♦ **Manager** : Mostafa Al Sheikh

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

رقم الإيداع:

٢٠٠٩ / ٢٠٧٨٠

الترقيم الدولي : ISBN

977-6148-61-1

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

75 QASR – ALAINI ST., in Front of Dar Al-Hekma, - CAIRO – EGYPT
Tel: +202-2795-3811 Fax: 00202-2795-4633
E-mail:afaqbooks@yahoo..om – www.afaqbooks.com
٧٥ ش القصر العينى – أمام دار الحكمة – القاهرة – جمهورية مصر العربية – ت : ٣٨١١ ٢٧٩٥ فاكس: ٤٦٣٣ ٢٧٩٥

في الأسبوع الثالث بعد خروجه من العملية، شعر ألكسي بتروفيتش نوسوف بأن حالته سيئة للغاية. أخذ ينزف. لم تأت الأدوية بجدوى، وصَفّى، ربما، نصف دلو من الدم في المرحاض. تحاشى نوسوف الذهاب إلى العيادة المجاورة على الرغم من أنه لم يكن يعرف هل سيقبلونه في العيادة السابقة التي كان يذهب إليها طوال عدة سنوات منذ ذلك الحين الذي جاء فيه إلى موسكو أم لا؟ فمع تغير السلطة وإلغاء المعاشات الخاصة انتقلت العيادة إلى خدمة القيادة الجديدة، وصارت مدفوعة الأجر بالنسبة للأغنياء، بينما تخلصت من القيادة القديمة التي تم إقصاؤها وبالمرة من المحالين إلى المعاش أيضاً. ولذا تباطأ ألكسي بتروفيتش، لم يفلح في الذهاب إلى عيادة المنطقة حيث كان، والحق يقال : يخشاها. أما في العيادة القديمة، فلم يود التعرض للإحراج: عفواً لستم مقيدين لدينا.

أصابه الضعف، وشعر هو بذلك. نهض من الفراش، وفي الحال أخذ يبحث، في خطوات مترددة مهزوزة، عن الحائط ليتشبث به. ظهر ألم عميق طاحن في أسفل بطنه، وعلى أثره ارتفعت درجة حرارته، وعندئذ استسلم. اتصل في نهاية الأمر بطبيب الأمراض التناسلية، في العيادة القديمة، الذي كان يعالجه قبل العملية. وفجأة قال بصوت ساخط: إنه على استعداد للدفع مقابل الكشف، فليس هناك مكان يذهب إليه غير هذا،

«ما عساكم- أجاب الطبيب متنهداً- طبعا، تفضلوا إنني لم أسلم البطاقة الخاصة بكم بعد».

لم يكن الطريق طويلا، ومع ذلك لم يرفض ألكسي بتروفيتش مساعدة زوجته. توقفا ما يقرب من عشر مرات؛ طلبا للراحة حتى اقتربا من مبنى العيادة المنفرد العتيق الغني بالأعمدة، ثم دخل بمفرده بعد أن تناول من زوجته الحقيبة التي صارت دافئة من وجود الترموس بداخلها. ولم تكن لديه رغبة في أن يحتكوا به أمام زوجته بخصوص تصريح الدخول. ولم يشأ أن تتوتر هي بسبب التشخيص. فكل التشخيصات الآن غير صحيحة.

بعد ذلك وقبل الدخول إلى الطبيب، جلس في الممر على أريكة كبيرة بجلد أصفر واضعا بين قدميه الترموس الصيني المستدير المنتفخ بألوانه الزاهية، وراح يشرب ويشرب؛ لكي يملأ المثانة، وكان من الضروري أن يشرب كثيرا، ليس أقل من لترين. كان الشاي المغلي مع الأعشاب لذيذا، فبث فيه الدفء ليس فقط بسخونته، لكن برائحة البراري الجافة أيضا، جلس بالضبط في زاوية الممر الذي يتفرع إلى جهتين، وكان يرى نهايتيه البعيدتين: واحدة منهما تقود إلى درج خارجي رئيس من الممر مفروش بالسجاد، والثانية تتوغل في بناء لا يقل فخامة عن جناح في قصر، لم يكن الناس يتدافعون في الممر أمام الأبواب، أو يثيرون ضجة في طوابير، هنا تحددَ لكل واحد موعد للكشف. أما السجاجيد الفاخرة والأسقف العالية بالجدران الواسعة والنوافذ الكبيرة فقد أذابت رائحة المرض وشتتتها مبقية فقط على رائحة النظافة المعهودة.

كانوا قد أجروا العملية لنوسوف في مستشفى متقاعدي الحرب، اختارها ألكسي بتروفيتش بنفسه. وفي الحقيقة فقد اختار ليس المستشفى

وإنما الجرَّاح كما يفعل الكثيرون. كان جراحاً ضخم البنية بيدين كبيرتين مثل جاروفين، وكأنه عامل منجم سابق. استقبل ألكسي بتروفيتش بهدوء ولامبالاة، لكنه تحمس عندما نظر إلى صورة الأشعة.. «الصور» على حد تعبيره، أعجبته، وبينما راح يخطو إلى الأمام وإلى الخلف بتثاقل وغبطة في المدخل الضيق للحجرة المليئة المزدحمة بالأشياء، صب ماء مغليا لعمل القهوة في فنجانين على صينية صغيرة، وفي الفناجين الكبيرة صب كونياك من قنينة، تحت السماور، مكرشة بصنبور. أما ألكسي بتروفيتش فراح ينظر في عبوس إلى «جاروفيه»، وحاول أن يتصور الأداة التي يمكنها ألا تتهشم فيهما، أو تكاد تضيع بين أصابعه الغليظة المتقوسة.

- سوف نجري عمليتين دفعة واحدة- أوضح الجراح وهو يحتسي من الفنجان الكبير ويتطلع ثانية في فضول إلى «الصور»-الانتفاخ والتجويف. هل أوضحوا لك ما هو الانتفاخ؟ قطع داخلي في قناة مجرى البول. وذلك من أجل الورم الغدي، وسندخل الأداة من خلال المجرى. كل ما يلزم هو أن نبتر وننتظر. وبالمرة سأصنع من الجهة الخارجية في المثانة، تلك الفتحة-ثنى إصبعه، ثم لوح بيده فاتضح أن الفتحة لا يستهان بها-بعد ذلك، ولكي لا تفقد دما زائداً سنفتح التجويف ونزيل الرّدْب.

ذلك الرّدْب الملعون الذي عانى منه ألكسي بتروفيتش بكثرة خلال نصف السنة الأخيرة، وهو الذي أجبره على إجراء العملية.. فما أكثر تلك المصائب التي تهبط هكذا على الإنسان! انتفاخ زائد مجهول المصدر يطن اسمه هكذا بوجاهة وكبرياء، ولكن الصبر عليه أكثر من ذلك أمر لا يطاق. شيء واحد فقط هوّن عليه: إذا كانت توجد تسمية فمن الضروري أن يكون هناك علاج. لقد أعطى الكمبيوتر مقاس هذا «الملعون» وحسب

مقدار السائل الذي يشفطه من المثانة، وكذلك المقدار الممتزج الذي يكفي، إذا ما ترسب ، لعملية تقيح الانتفاخ. لقد أرغم الرّدُب ألكسي بتروفيتش في سن الشيخوخة على أن يتعرف على تلك المجموعة المثقفة من المراسم والإجراءات حول التقلبات التي يستحيل الشك في وجودها لدى الإنسان البريء المسكين.

تمت العملية بنجاح. بنجاح لألكسي بتروفيتش، وبشكل رائع كما رأى، بالنسبة للجراح. فقد قام عدة مرات بزيارات خاطفة لنوسوف في العنبر، كان منتعشاً ونشيطا بصورة دائمة، بل وحتى مرحا ومسليا، وراضيا عن نفسه، إذ يطوّح بالبطانية من فوق المريض ويحدق بإمعان في مكان «العورة» المغطى بالبلاستر حتى المنتصف وتخرج منه ثلاثة أنابيب متدلية.

– واضح أنك أستاذ في حل الكلمات المتقاطعة– قال على الفور بمجرد أن أعادوا ألكسي بتروفيتش من غرفة الإنعاش إلى العنبر.

– عمَّ تتحدث؟

– ألا تذكرون؟ لقد انهمكت في حل الكلمات المتقاطعة مع طبيب التخدير بينما كنت عاكفاً عليك. هذا الشاعر.. الليتواني.. كتب قصيدة «إنسان» بمدينة في شمال أفريقيا.. هذا رائع. ولكن عندما فتحت الانتفاخ، كان قد حان وقت النوم .

–لا أذكر.

بعد إجراء الأشعة، أجبر ألكسي بتروفيتش على الجلوس لفترة طويلة بالممر الحجري البارد– إلى أن حملوا صورة الأشعة. وفي مصعد شبه

معتم، وبمجرد أن صعدوا إلى الطابق العاشر، وضعوا أمام الضوء ورقة سوداء فيها رسوم مائية شفافة لشيء ما ممسوخ وقبيح، وفي ثقل وثقة دون إعلاء من قيمته، وإنما تأكيداً على هذه القيمة، قال:

– وكأن مثانتك جديدة، أترى؟ ألا ترى حقاً؟ مثل مثانة الطفل.

مرة أخرى أقبل الجراح في تلهف، وتعطش للحصول على النتيجة الطبيعية المطلوبة. وكان عائداً لتوه من عملية ، وحين سأله ألكسي بتروفيتش عنها، أجابه بتأنق مبالغ فيه: « الشركة لا تصنع مقشات»، ورائحة الكونياك تفوح منه. ومن عينيه الحذرتين المصوبتين إلى شيء ما غير واضح، خمن ألكسي بتروفيتش أن هناك شيئا ما هُدِم.

– إنكم تنهكون أنفسكم– لم يتماسك ألكسي بتروفيتش وهو ينظر إليه مدركاً أنه يعمل كثيراً – تنهكون أنفسكم ولن يقل عدد المرضى ، بل سيصير الأمر بالنسبة لهم أسوأ.

– في الأسبوع الماضي.. مرة ثانية، وعلى ما يبدو، بشجاعة مصطنعة، أعترف: انقبض قلبي، لا حركة هنا ولا حركة هناك. أخذت أتضرع: يارب، إذا كنت موجودا، دعه يتحرك في أي اتجاه ولا تُسكته.

– هـه، أترون؟

سحب الجراح البطانية من فوق ألكسي بتروفيتش، تريث قليلاً وهو يمعن النظر، وبنفس العزم انتزع الأنبوبة الأخيرة– تلك التي كان ينسكب منها السائل من المثانة في كيس من السلوفان عبر خرطوم رفيع شفاف، وبسرعة خاطفة حتى أن ألكسي بتروفيتش لم ينتبه لما حدث.

– ولكن إذا لم يخرج؟ : سأل ببعض الخوف.

- يجب أن يخرج وسوف تقوم الممرضة الآن بالإعداد لذلك، اشرب ولا تفعل شيئاً بدوني.

بعد ساعة، ذهبا معا إلى دورة المياه ، وعندما اندفع السيل من خلال المغص المؤلم مختلطاً بقطع الدم المتجلط، صاح الجراح في رضا وقرّب وجهه القروي الضخم إلى المرآة المستطيلة الرفيعة على الحائط ومن هناك، من المرآة، غمز لألكسي بتروفيتش.

بعد ذلك أصبح ألكسي بتروفيتش بالنسبة له غير مهم.

!!!!!!!!!!!!!!!!!!

هاهو المستشفى مرة ثانية. كان ألكسي بتروفيتش قد أصبح مستعداً لذلك، حيث ألّمّت به حالة من الحمى المصحوبة بالتقيحات، ووصلت إلى حد فقدان الوعي، وأصاب الحوض ألم كليٌّ فقالوا له ألا ينهض أثناء وجوده بالبيت. ولكنه مع كل ذلك لم يكن مستعدًا لإجراء عملية جديدة. لكن عندما تجمع عدة أشخاص، مرتين خلال يومين في العيادة، أمام جهاز الترددات فوق الصوتية، توصلوا إلى استنتاج: تمزق الخياطة الداخلية، وبدون عملية لا يمكن تجاوز الأمور.

نقلوه في المساء بعد حلول الظلام. استطاعوا أن ينقلوه فقط من تلك العيادة إلى هذا المستشفى - الأرستقراطي، الذي أصبح منذ فترة غير بعيدة في حوزة الدائرة الرابعة المعروفة، وكان قائما في حديقة كبيرة بطرف المدينة. لم يكن نوسوف يملك الحق في دخول ذلك المستشفى، مثلما لم يملك الحق في الكشف بالعيادة، ولكن إذا كان قد نجح في التسلل إلى

العيادة، فليس هناك طريق آخر سوى ذلك المستشفى.

كان مضطراً إلى الجلوس ساكنا لفترة طويلة. أما العجوز التي أرسلوها إلى قسم الأمراض الباطنية، فلم تكن تود الذهاب بأية حال من الأحوال إلى قسم الأمراض القلبية. كانت ضخمة متراخية، برأس أشيب وصوت جاف خشن متعود على نبرة الأمر والنهي. جلست على المقعد المتحرك وهي ترفض في إصرار بعدما فهمت الممرضة المناوبة من حديث تليفوني أنهم يزعمون نقلها ليس إلى الجهة المطلوبة. المناوبة امرأة جميلة شابة، مشدودة القامة، مهذبة، مدربة في أدب ولطف. أوضحت وهي تنهض خارجة من خلف مكتبها تارة، وتارة أخرى وهي تجلس أمام التليفون أنه لايوجد اليوم مكان في قسم الأمراض الباطنية، ولا حتى مكان واحد. وسوف يوجد مكان غداً أو بعد غد. ردت العجوز بشكل قاطع: من غير الممكن ألا يوجد مكان، ولماذا إذن جاءوا بها اليوم، وكان من الممكن أن تأتي غداً أو بعد غد. أما الممرض، ذلك الرجل الطويل البارد ذو الوجه النعسان، فقد كان يهم تارة بدفع المقعد إذا ما بدا له أنهما قد توصلتا إلى اتفاق في نهاية الأمر، وتارة أخرى يتراجع ليتطلع إلى التلفزيون. وكان صوت التلفزيون خافتا، ولكنهم عندما كانوا يتواثبون بالميكروفون في أيديهم وهم يزعقون ممزقين حناجرهم، كان الصوت يتحول على نحو ما من تلقاء نفسه إلى هدير وزمجرة.

جلس ألكسي بتروفيتش على مقعد كبير واطئ مستغرقاً في نفسه شبه نائم في حالة ضبابية. ارتفعت درجة الحرارة ثانية وجف حلقه. بدا له أن جسده كله متضعضع بشكل مزرٍ، وفوق ذلك بدأ السعال أيضاً. من خلال الضباب لاحت صورة الجراح الذي أجرى له العملية في المستشفى،

وراحت تحدق فيه. تذكر ألكسي بتروفيتش نفسه على طاولة العمليات، وبوعي تذكر بطنه الموجوع، فكيف جثم الجراح على بطنه، بالضبط وكأنه يدفع بعتلة أو بشيء ما من هذا القبيل أخذ يرفع ما فيه ثم سلخ جزءاً منه. استسلم جسده كله تحت يدي الجراح الهائلتين، ولتلك الدفعات وهو يهتز بشدة دون ألم على الإطلاق ومن اليمين، من مكان ما من الأعماق السحيقة، وصله صوت طبيب التخدير ذي الصدى القوي يسأله تارة عن حالته، وتارة أخرى يمتحنه بأسئلة في الكلمات المتقاطعة. انفصل الجزء السفلي من جسده وغاب تماماً، وفي مقابل ذلك ظل كل شيء لسبب ما واضحاً في ذهنه.

في النهاية نقلوا العجوز. لم ينتبه ألكسي بتروفيتش على أي شيء وافقت هي، ولكن المناوبة كانت منهكة القوى بعدها. فذهبت خلف الستارة وأسدلتها بشكل سيىء وراءها، وأمام المرآة راحت تدلك وجهها بيديها الاثنتين. جاءوا بالمقعد المتحرك ووضعوه أمام نوسوف، دلّه أحد ما على مكان تبديل الملابس، ووضع له آخر الترمومتر بعد أن جلس في المقعد برداء المرضى التيلي قصير الأكمام فوق البنطلون. مرة أخرى جلست تلك الممرضة نفسها خلف المكتب تسجل وتتصل بالتليفون. المصعد به مرآة ، وكان الممرض المرافق لايزال بعد صبيا بشارب قد نما بالكاد، أخذ طوال الوقت يمط شفته العليا أمام المرآة، ويلمس شاربه تارة بأصابعه، وتارة أخرى بلسانه.

كان التليفزيون مفتوحاً في عنبر لشخصين، بنوافذ كبيرة، وسريرين حديديين بمحاذاة الجدران. ولأنه كان يخاف التلفزيون، فقد كان هو الشيء الوحيد الذي لاحظه قبل أي شيء آخر. من جهة اليمين في مواجهة

الباب والتليفزيون رقد جاره على السرير في قميص داخلي سميك أبيض. لم ير ألكسي بتروفيتش في ذلك المساء أي شيء أكثر من ذلك. أتوا إليه في الحال، تقريباً، بدورق جرافيتي به ماء أصفر اللون وأرغموه على الشرب. سأل الجار عن شيء ما، فأجاب ألكسي بتروفيتش بشيء ما من خلال عتمة الإغماء. كان اهتمامه مركزاً على الدورق، وكيف يسكب منه سائلاً مقززاً، بطعم نتن، في بطنه. بدا التلفزيون مثل طبق يتلألأ في خفوت، يتوهج بألوان مترجرجة متموجة تكاد تنسكب كسائل لزج متجلط. وأفاق على ملمس الأنبوب البارد الذي نتأ من أسفل بطنه، وكانوا قد غرسوه فيه بقوة شديدة. وعلى يمينه، رأى قامة منحنية بشكل قريب جداً من التلفزيون. وانتشرت رائحة القهوة. «ماذا هناك؟» – سأل ألكسي بتروفيتش. رد الصوت: « يبدو أن هناك شيئاً غير صحيح، غدا يجب إعادة الكرَّة. ولكن ما هو الشيء غير الصحيح، وهل هذا حسن أم سيىء، فلم تكن هناك قوة على الاستفسار، وبآخر ما تبقى لديه من قوة نهض من مرقده، أزال بالمنديل الورقي الذي أعطوه إياه الفازلين من فوق بطنه، ثم اتجه نحو الباب. «ليس هناك» : صاح بصوت عال مضاعف. ولكن كيف خرج «إلى هناك»؟ لا يذكر.

انتزعوه في المساء من غيبوبته مرتين لكي يعطوه الحقن. وبينما راح يُجَدف معتمدا على ركبتيه ويديه، انقلب على بطنه الذي بقبق بداخله شيء ما، لدرجة أنه شعر بألم حاد خاطف، ثم استغرق مرة أخرى في غيبوبة. سطع أمامه شيء ما لفترات زمنية متقطعة، بقع ما كريهة تشبه قناديل البحر، على الشاشة وعلى صور الأشعة، تستعد للحركة وبالقرب منه تماماً، راح صوت هادر ينفر ويدق.

IIIIIIIIIIIIIIIIIIII

رشرشت قطرات من جراء ذوبان الثلج، على حافة النافذة الصفيح. سقط الثلج في الليل، ذاب على الفور. ومن كوة النافذة أعلى بطارية التدفئة هبت رطوبة. وفي النافذة ضوء رديء معتم لا يمكن من خلاله تحديد هل هذه هي بداية النهار أم أنه بدأ في الانتهاء. كانت النافذة تطل على الغابة التي امتدت في ارتفاع وكثافة بأغصان سوداء متشابكة لأشجار عارية. صاحت الغربان بصوت عال في تهتهة، راحت سيارات في مكان ما قريب تبتعد وهي تنخر وتغط. وتعالت أصوات جهورية لامرأتين.

على الكوميدينو استقر طبق فيه بقايا كُبيبة، ما كاد ألكسي بتروفيتش ينظر إليه حتى شعر بالغثيان. لم تكن لديه رغبة في الأكل، ولكن لو كوباً من الشاي الساخن؛ من أجل إيقاظ ما تبقى لديه من قوة، لكان غير مضر الآن . نظر إلى الساعة: قاربت العاشرة. كان التلفزيون مفتوحاً، وأحد هؤلاء الشبان، الذين ما كادوا «يفقسون من البيضة»، والذين ينطّون الآن في العيون والآذان من كل الثقوب التي تبث الصوت أو الصورة، ومن كل أعمدة الصحف، انفجر عبر الشاشة بصوت عندليب يغني عن محاسن الخصخصة، وهو يصأصيء في أنوثة محركا كتفيه المتهدلتين في تصعير. كان الجار يستمع باهتمام وهو في سريره. انقطع عن التلفزيون على صوت تحرك ألكسي بتروفيتش، استخبر عن الصحة، وبينما كان يعود إلى وضعه السابق، قال بدهشة:

– إلى أي شيء وصل حال الرجال الأذكياء؟

بدا لألكسي بتروفيتش أن هذا الكلام لو كان حتى بدون سخرية، فهو مع ذلك أمر غير جائز. ورداً على هذا ابتسم مؤكداً وبشكل ضعيف.

بعد ذلك أخذ يتأمل جاره في تمعن. لم تكن هناك ضرورة لإلقاء الأسئلة عليه، فقد راح يحكي بنفسه. كان غير طويل القامة، مكتنز البدن، من ذلك النوع من الناس النشطين على الدوام، الذين يأكلون كثيرا، ويشربون كثيراً دون أن يعانوا من تأنيب الضمير حيث يمررون كل شيء بداخلهم مثلما يمررون الفضلات العضوية. اسمه أنطون إليتش، بنى مستقبله بنفسه من دون مساعدة خارجية، وترقى في عمله من مهندس ورئيس قسم إلى مدير مؤسسة بناء ضخمة. في السنة الرابعة على المعاش حاليا. للعام الرابع يدور على الأطباء بحصوات في الكلى. إنسان غير ضعيف الإرادة، وبعد إحالته على المعاش، وبعد نوبات الألم القاسية التي تتوالى فجأة على الدوام، صار أكثر سرعة في استجابته للغضب، وأكثر انعداما للثقة بنفسه، وأكثر عناداً وتصلباً في الرأي. رفض إجراء العملية طوال ثلاث سنوات، ظل يتتبع الوصفات العلاجية الطبية الكثيرة بالوسائل الجديدة دون أسف على النقود. ولكنه... هو نفسه كان قوياً، ومن ثم ربى حصوة قوية مثل الزلطة في كليته، لم تستجب للمحاليل الفلبينية والإيطالية الخصوصية، ولا للقصف بالليزر. وها هو.. قد استسلم من أجل العملية. ضحى بالمؤسسة التي كان يديرها، ولكن لم يبق أمامه في ذلك الوضع إلا أن يدفع بعد ذلك عن كل يوم من وجوده بالمستشفى، الأمر الذي دفعه إلى عد الأيام وحسابها ليس فقط بسبب الاشتياق إلى بيته، وهو نفس الأمر الذي جعله يصاب بالقلق ويستحث نفسه على الخروج بسرعة. ومع أنه استطاع أن يقلق نفسه، ويتوتر كما يشاء، ففي المستشفى كان نظامه الخاص، بل وربما تقديراته الخاصة أيضاً، لم يكن هناك أي شيء متوقف عليه. وكان لزاماً عليه في السنوات الأخيرة أن يكون قد تعود على أن كل شيء قد صار يتوقف

عليه بصورة أقل فأقل. ورغم ذلك فقد كان هناك تناقض ما لايستطيع أن يدركه، تناقض ظاهري ما، معقد؛ ففي مصلحة صحته الشخصية لم يكن من الضروري اختصار فترة وجوده في المستشفى. ولكن بمجرد استغراقه في الأفكار عن إمكانيته في اجتياز تلك الرقدة غير المحددة حتى ذهبت جميع الأفكار العاقلة إلى الشيطان.

أصاب ألكسي بتروفيتش سعال أخذ يشتد ويقوى. انخفضت درجة حرارته، ولكن ذلك كان في أوقات الصباح، ثم ترتفع قرب حلول المساء. نهض من الفراش بصعوبة. أخرج من الحقيبة، السخان والكوب المعدني القديم اللذين لم يفترق عنهما في أية غيبة عن البيت. أخذ يحتسي ويحتسي، كوبا وراء الآخر، من الشاي الثقيل الحارق. وبعد ذلك داهمه الطبيب الذي كان في جولة مع الممرضة- في معطف أبيض وطاقية- مهندم، غير طويل القامة، وغير ثرثار، بعيون حزينة طيبة. توقف عند ألكسي بتروفيتش، وبينما راح يستمع إلى الممرضة، أخذ يمر بيد صغيرة في حرص؛ تفادياً للألم حول الخياطة، وسأل ألكسي بتروفيتش: كيف نام؟

- السعال - قال ألكسي بتروفيتش، وهو يسعل ثانية- يرتد إلى هناك- وأشار ناحية فخذه.

- السعال أمره بسيط، سيمر. رد الطبيب مستغرقاً في التفكير ثم اتجه إلى الباب.

- ولكن متى بالنسبة لي يافاديم سيرجييتش؟، هب الجار: متى تتولى أمري؟

- من الواضح أنك غير جاهز بعد...

- أنا جاهز، قاطعه الجار:

- لاتتعجل- قال الطبيب من عند الباب- أنه فترة المراقبة أولا، وسوف أفحصك مرة أخرى كما ينبغي، عندئذ.. خرج، وبقيت الممرضة التي انحنت على منضدة الجار، وكتبت ورقة: إلى أين، وإلى من يذهب لإجراء التحاليل؟

في المستشفى، حيث رقد ألكسي بتروفيتش في السابق، كانت الممرضات فتيات شابات ضجوجات فظات يصرخن في المسنين، ومع ذلك كن نشيطات وماهرات. بيد أن المرضى هناك كانوا أيضاً أعنف وأكثر عصبية، وعددهم أكثر بنصف مرة. هنا، أمس واليوم، الممرضات مسنات، لطيفات بدون تصنع، هادئات، لا يفتهن أي شيء.

- بالمناسبة، اشرب- قيل ذلك لألكسي بتروفيتش- بعد ساعة سنذهب معا إلى الأشعة ما فوق الصوتية. اشرب أكثر.

- كنتُ هناك في الليل.

- في الليل، وفي النهار، وفي الصباح، وفي المساء- ردت الممرضة بغناء وهي تقلب ألكسي بتروفيتش فجأة على جانبه بيدين قويتين. وبعدما خبطته على مؤخرته، غرست الإبرة في الحال دون أن تعطيه الفرصة للاستعداد، وبالتالي لم تعطه الفرصة للإحساس بالألم.

ذهب الجار دون أن يغلق التليفزيون كعادته. وما أن لم يجد هذا اهتماماً، حتى راح يجاهد في الحصول عليه، وأخذ يقوم أمام ألكسي بتروفيتش بتلك الحيل والألاعيب مما جعل ألكسي بتروفيتش ينكمش من الرعب. ومع ذلك فلم تكن لديه رغبة في النهوض لرفض خدماته: هدأ

السعال تحت تأثير الشاي الساخن، ولكن النهوض أيضا سوف ينشّطه. طارت على ألكسي بتروفيتش من أعماق الشاشة، كما لو كان من نفق، طيور كاسرة هائلة الحجم، واحدة تلو الأخرى: فتيات عاريات بأرجل مفتوحة يصحن في اللحظة الأخيرة بنهم ورغبة بكلمة إعلانية ما، خادعة، لها شكل... يا إلهي، اغفر لي وارحمني! حتى رؤية ذلك على انفراد كانت شيئاً بذيئاً، ولم يكن من الممكن الاستدارة إلى أية جهة. كانت الفتيات يندفعن في تحليقات أرضية سريعة من الدولاب المطلي باللون البني الغامق، الواقف خلف سرير الجار، ومن المرآة ذات المصاريع القائمة وراء سرير ألكسي بتروفيتش. ثم تغيرت الفقرة الإعلانية: انتظمت الفتيات اللاتي رحن يهبطن في صف واحد، وهن يرجرجن مفاتنهن على أصوات الأجراس، ويصلصلن بأسنانهن في وقت واحد مع ابتسامات ساطعة وقد قبضن أثناء هبوطهن على علب ما، وأخذن يدلكن أنفسهن في جنون بدهان ما « يا إلهي! راح ألكسي بتروفيتش يبتهل - وهذا ... وهذا... ولكنه على أية حال لم يتمكن من اكتشاف « ما هذا».

عاد الجار بالصحف. اتضح أنهم يبيعونها بالطابق الأول. في تلك اللحظة حضروا من أجل ألكسي بتروفيتش، وكان عليه، شاء أم لم يشأ، أن ينهض. سار يجر قدميه خلف الممرضة التي كانت تركض مبتعدة عنه، ثم تتوقف في انتظاره قبل كل انعطافة. دخلا نفس الحجرة التي دخلها في الليل. ولكن ألكسي بتروفيتش لم يتذكر على الإطلاق أين كان ذلك، ولم يتذكر أيضا المصعد الذي كان عليه أن يصعد فيه، وفقط عندما انطرح على الفراش رافعاً عينيه نحو السقف، عرف الحجرة.

ومع ذلك، ففي طريق العودة بدون الممرضة، راح يسأل مرة أخرى عن الطريق إلى قسمه.

كان جاره نائماً، والصحف متناثرة فوق البطانية. أما ذلك «الشرير» فقد أجلس معبودي شاشته في حلقة خلف طاولة صحفية واطئة، وراح يدق في العقول نفس الأغنية التي تتردد في الخارج عن الهناء والبحبوحة واليسر. وكان كل ذلك بأصوات تمثيلية مُدَّعِيَة مثل مجموعة من الملتحين الذين يتمتمون في سرعة وتصنع. بدا لألكسي بتروفيتش أن ذلك فيلم كارتون، فضغط بارتياح شديد على زر الإغلاق، وراح ينظر بمتعة كبيرة، كيف اندفع الملتحون مبتعدين في سرعة وهم يتحولون إلى دُمى مما سَلاه وهون عليه.

تلاشى، تماماً، نهار مارس المتجهم. قبعت الغابة، من خلف النافذة، تحت أحزان متجمدة. أصبح صعبا في ذلك التشابك تمييز أين أغصان أشجار الزيزفون السوداء، وأين أشجار الاسفندان. ذاب الثلج الليلي، وظهرت الأرض مبللة حزينة في فرشة عارية من الأوراق السمراء الداكنة، وتهدلت السماء عند الأفق ببقع مليئة بالماء. أما طريق التنزه الخرساني الصغير الذي يقود إلى داخل الغابة فقد كان خاليا.

استلقى ألكسي بتروفيتش مرة ثانية. بدأ التصدع والألم ليس فقط في مكان الوجع، وإنما في الجسد كله. صارعته سِنة نعاس، ولكن السعال لم يمكنه من النوم. تناهى إليه صوت الممرضة من الممر، وكانت طاولتها في مقابل الباب تقريباً. ومن وقت لآخر كان يصله وقع خطوات: مسرعة، بكعوب مطرقعة لطاقم الممرضات، وخفيفة بطيئة للمرضى. دوّي، بصوت مكتوم، هدير راديو بعيد: كل ذلك كان بمفعول المخدر.

جاءوا بقطّارة على حامل عال. مد ألكسي بتروفيتش يده بشكل يحفظه عن ظهر قلب، ففي جميع المستشفيات سمع نفس الشيء «لنعمل بقبضتنا» كي نستحث الدم، أخذ يطبق كفه ويبسطها إلى أن شعر بالعاصبة الضاغطة على يده من أعلى المرفق تتوتر، ولم يشعر كيف انزلقت الإبرة داخل الوريد. وفي شبه نعاس رأى على المنضدة الصغيرة، باستثناء القارورة المثبتة في الحامل، قارورتين مُكرّشتين يجب ضخهما في الوريد، وهذا يستغرق حوالي الساعتين.

شعر ببرودة. طلب من الممرضة أن تغطيه بأي شيء. راح يستدفئ تحت البطانية التي ألقيت عليه. اختبأ متبرما، وفي الوقت نفسه بتدلل وهو يتوجع متعزيا. تصاعد الألم أيضاً في فخذه. أخذ ينتشر في بطء. «لا يهم، لا يهم» – مرة أخرى فكر ألكسي بتروفيتش في تشتت، وظهرت أمامه وجوه يعرفها تسمرت في حالة توقع: إما مودعة إياه أو مستقبلة.

اقتربت الممرضة، فأرغم نفسه على فتح عينيه. نظر شذرا إلى القطّارة. سال السائل الأصفر، سار بطول الخرطوم الشفاف، راح ينسكب في الوريد بذراعه الخامدة الممدودة. لم يشعر بحضور أي شيء غير عادي أو غريب. وغاص ثانية، في ضعف لذيذ، في الدفء.

لسبب ما كان عليه أن يسترد وعيه. فتح عينيه.. كان الطبيب واقفا في العتمة أمامه وقد تميّز في وضوح بمعطفه الأبيض وطاقيته.

– ماذا، يادكتور؟ كيف الحال هناك؟ متى العملية؟– سأل ألكسي بتروفيتش محاولاً ألا يخرج صوته ضعيفاً.

– سنرى. سوف نرى. بدا أنه قد حضر خصيصاً لكي يتفحص ألكسي

بتروفيتش. وبعدما نظر إليه دون أن يلمسه، انصرف واندفع ألكسي بتروفيتش الهادئ المطمئن، الذي لم يكن عليه أن ينهض، بسعادة من الضفة الصلبة القاسية حيث رسا قليلاً، وراح يسبح مثل الضفدع البشري في بطء وفتور، يسبح مرة أخرى في الأعماق اللذيذة.

IIIIIIIIIIIIIIIIII

في اليوم التالي منعوا نوسوف من النهوض. جاءوا إليه بالطعام على عربة يد مقعقعة، ما كاد يتناول منه قليلاً حتى تركه من شدة الإعياء، وقد شعر كيف يستقر الطعام في المعدة بشكل متعب وغير مريح. طلع النهار، مرة أخرى مكفهراً ورطبا. تسرب إلى النافذة ضوء رمادي قاس. قفز شيء ما في موضع الألم، من نهايته إلى نهايته، وأخذ يدق في وجع. سرى مفعول الدواء على شيء واحد: أصبح السعال أقل، وأخذ يتنحنح بدون جهد أو توتر، ومن ثم استطاع ألكسي بتروفيتش أن ينام أكثر. كان يسقط في النوم مباشرة ، بمجرد أن يغمض عينيه، ولكن هل كان ذلك نوماً؟، من الصعب أن نقول، فكأنه كان يغوص في هوة واحدة لا تتغير، بمياه غير نقية وهواء راكد. لم تكن حالته فيها سيئة أو جيدة، كانت تسحبه إلى داخلها وتضبب وعيه. جاءوا بالحقن والأقراص والأجهزة، نفّذ كل ما طُلب منه بصورة ميكانيكية، تطلع بلا معنى لوهلة إلى القامات المهتزة في التلفزيون، ورغما عنه أغلق عينيه ثانية.

انتابته من وقت إلى آخر تلك الصحوات التي كانت تعيده إلى الحياة. تذكر، في واحدة منها، أن زوجته قلقة لا تستقر في مكان، ولن يسمحوا لها بدخول ذلك المستشفى، في ظل نظامه هذا، بدون تصريح؛ لذا طلب

من جاره أن يتصل بزوجته ويخبرها بأنه يقول لها إن التصريح غداً. يجب أن يكون الحال في الغد أفضل. طلب ذلك من جاره، ووقف هذا الأخير مستعداً، إلا أن ألكسي بتروفيتش لم يتمكن من العثور في ذاكرته على رقم التليفون. استعصت عليه الذاكرة تماماً. استعصى عليه كل شيء. وفي النهاية تذكر عندما ولج إلى الذاكرة من ناحية أخرى: تخيل كيف كتبتْ الأعداد على البطاقة الصفراء الصغيرة الملصقة على جهاز التلفزيون. وبعد حصوله على النتيجة، تيقظ تماماً.

غمغم الجار بصورة غير مفهومة وهو يتأمل نفسه في المرآة، ثم خرج.

الذهاب لإجراء عملية جراحية، إذا كان لأول مرة، أمر قاس. عاش الإنسان كما خلقه الخالق، فجأة يحدث شيء ما يتطلب تدخلاً سريعاً وإصلاحاً. في ذلك يوجد شيء ما غير طبيعي، فظ، قهري. خصوصاً الآن، عندما صاروا يغيرون الأعضاء. كل ما هو إلهي رائع ووحيد وليس له بديل انحدر إلى مستوى الميكانيكي والتركيبي. يمكن استئصال المرارة، إزالة كلية غير نافعة، رئة، تقصير أو إطالة- مثل الأنابيب- طرق الإخراج والتصريف، استئصال من مكان وترقيع في مكان آخر، خياطة يد أو قدم مقطوعة، رتق المثانة من الزائدة الدودية. لقد وصل علم الإصلاح والترميم إلى نتائج لم يرها أحد من قبل، وما يزال يتطور ويكتمل أكثر، وأكثر. عندما تتدخل الصنعة في ربانية الوعاء البشري وتتجادل معه، تصير هي ذاتها بالتدريج إلهية وتطالب، زاعمة، بالدور الأعلى. إنقاذ الحياة يبرر كل شيء طالما كان الإنسان حياً. إلا أن كل تدخل إنقاذي من ذلك النوع تترسب فيه بالضرورة، وتبقى حِسْبَة ما خاصة.. فلمن ستُقَدّم هذه الحسبة بعد ذلك؟ لقد اجتاز ألكسي بتروفيتش طاولة العمليات أربع مرات. يعيش

على الترميم مثل جهاز تسخين بمضخة، ولكن بعد كل عملية كان ينمو بداخله، دون إرادة، هلع من شيء ما وكأنه غدر جديد.. لم يستطع تحديد الشيء المغدور، أو ما كان يثير رعبه بالذات، ومع ذلك لم يداخله إحساس بالاستهتار أبدا.

عاد الجار، مخشخشاً بالصحف، دون أن يتحدث بأية كلمة وانشغل بترتيبها.

- هل نسيتني، يا أنطون إليتش؟- سأل نوسوف.

- أقول بصراحة، لم أنس- أجاب الجار بحدة فجائية، ناطقا بوضوح وبالضبط، وفي حالة إعلاء للمبادئ، ثم اختلج وجهه- لم أود تلطيخ يدي.

- كيف ذلك؟ - لم يفهم ألكسي بتروفيتش - ما هذا الذي تقوله؟

- لا يوجد في صحفكم سوى بروباجندا عدائية. شر فقط، أقرأ صحفي لو أردت.

- بالطبع ومن الممكن صحفكم أيضا. رد ألكسي بتروفيتش في ضيق متأملاً جاره بألم وخجل.

وفجأة انتابته هو الآخر حالة سورة عاجزة يرُثى لها- وهل حقاً هناك عندكم- أشار بيد مرتعشة نحو التلفزيون- لا توجد بروباجندا عدائية؟ ليس حضاً على الزنا؟ ليس استغفالاً؟

- لا، ولكن حتى إذا كان الأمر كذلك؟ فاستغفال الحمقى هو الذي يصنع منهم عقلاء.

أليست هذه قسوة زائدة من قبلك؟ وأيضاً مجازفة، وربما...

- أنا لم أقصد شخصك أنت.

- شكرا. ولكن إذا لم أكن أنا وأنت في عداد هؤلاء الحمقى، ولا أعطيتم هذا- أوما ألكسي بتروفيتش إلى التلفزيون بكراهية- الشيء العجيب فترة للراحة. فلا أحد يعرف كيف يؤثر هذا على العقلاء...

- تكلم، إذا كان يزعجك. لماذا لا تقول؟ وسنتفق.

«هل حقاً يصيبه الجبن هكذا قبل العملية؟ - أغلق ألكسي بتروفيتش عينيه مستغرقا في التفكير- ولكن في هذه الحالة، يبدو لي أن الأمر يجب أن يكون على نحو معاكس بالضرورة». وراح يتذكر ما كان يحس به هو ذاته قبل العملية. كان من الممكن ألا يتذكر أيضاً ذلك الاغتمام.. والتحسر على النفس، وفي نفس الوقت الاهتمام الخاص والزائد بكل ما يحيط، وكأنك تحاول التشبث بشيء ما في قوة والاهتمام بالناس والتصالح معهم، والاستعداد لتقديم العون والمساعدة. عادة ما يكون ذلك حزينا ولسبب ما في غاية البساطة! فلم يعد هناك أي شيء بعد الآن يتوقف عليك. حيث إنك تكون، كما لم تكن أبدا، حرا طليقاً، متوجهاً إلى حيث يعيش الخلود. ولكن ذلك يتوقف، حتى قبل العملية وقبل الجراح، على نظرة الناس إليك، تلك... تلك التي تتجسد في صورة غير مادية، مثل الظل، لملاكك الحارس، الذي يقف غير بعيد عنك. ففي هذه الحالة لا يجوز الأمر بدون ملاك حارس. قام ألكسي بتروفيتش بإجراء عملية التفكير والتأمل على نفسه. والآن، أين ملاكه الحارس، ملاك ألكسي بتروفيتش، ألم يتعب بعد من مرافقته؟

ذات مرة بعد إجراء إحدى العمليات، ربما الثانية التي كان من الممكن أن تنتهي بصورة مؤسفة، رأى ألكسي بتروفيتش حلماً. كان قد عاد إلى وعيه، بعد المخدر في غرفة الإنعاش. وكان السرير لسبب ما مرفوعاً إلى أعلى، على مستوى الطاولة الواقفة إلى جواره. وعلى غير مبعدة منه وقفت امرأة تصرخ وتئن، والخطوات المسرعة تقترب وتبتعد. لم يكن الجو خانقاً، ولكن الهواء بدأ وكأنه قد أُعد خصيصاً بهذه الدرجة من الجفاف والوخز. لم يكن من الممكن أن يستيقظ ألكسي بتروفيتش لو لم تحركه الممرضة وتخبطه على خديه. لسبب ما كان الأمر يتطلب ألا ينام. وأفاق في حالة من القشعريرة الفظيعة، كان جسده يهتز اهتزازاً شديداً، ودون أن يسمع صوته طلب أن يغطوه. لم تزل القشعريرة. «لا تنم، لا تنم» كررت الممرضة وهي تتناول يده ممسكة إياها عند المرفق لكي تعثر على الوريد. كانت لديه رغبة في مساعدتها، ولكن جفنيه اللذين ارتفعا بالكاد وبثقل فوق طاقته راحا ينغلقان مرة وراء الأخرى.

عندئذ فقط رأى ذلك الحلم، قاعة هائلة بدون نوافذ وقد أضيئت على نحو شديد السطوع، وجدران معلقة عليها لوحات في إطارات خفيفة مستطيلة، على اللوحات شيء ما تجريدي، قامات غير معتدلة خطوط ضعيفة متقطعة ومهشمة. وهو يبحث عن مخرج ولا يمكنه العثور عليه. راح يلف ويدور، مرة وراء الأخرى في القاعة رافعاً جميع اللوحات واحدة بعد الثانية حيث كان من الممكن أن يكون خلفها نافذة أو فتحة. ولا شيء سوى ذلك الجدار الأبيض الأصم نفسه. يبدأ البكاء في يأس مدركاً أنه من المستحيل أن يبقى هنا. أخذ يركض، ويركض وقد فقد عقله تماماً، بينما صار الضوء أكثر لمعاناً وسطوعاً... ولم يتبق سوى لحظة حتى يحرقه

ويحوله إلى رماد.

تمكنت الممرضة بالكاد من إفاقته. واصلت الدموع انهمارها، طلب من الممرضة ألا تبتعد وهو يتشبث بيدها مثل طفل صغير.«لا تنم- تضرعتْ إليه- جرب ألا تغمض عينيك، تماسك».

وطوال عشرين عاماً بعد ذلك كلما تذكر ألكسي بتروفيتش ذلك الحديث عندما تمكن في جدية وعزم من إظهار إرادته، كان يبدأ الحكي قبل كل شيء من تلك القوة الخارقة التي حشدها آنئذ، وهو في حالة شبه الغيبوبة من أجل ألا ينزلق في حالة فقدان الوعي.

منذ ذلك الحين وهو يخشى تكرار ذلك الحلم. لكنه لم يكن حلماً كما بدا له، وإنما شيء ما مختلف ووداعي، ومن الضروري أن يعاوده في وقت ما. كان يتذكر بكل ذلك الوضوح والدقة، تلك القاعة الصماء الغارقة في الضوء الكهربائي الساطع الذي لا يحتمل، ويتذكر نفسه بالدموع المنهمرة على وجهه في سرعة، وأن ذلك من الضروري أن يكون في مكان ما غير بعيد منه. وفي المرة الأخيرة بالمستشفى، عندما عاد إلى وعيه بسهولة بعد تخدير خفيف، فرح أكثر من المرات السابقة، ربما لأنه كان يثق في قدرته بشكل أقل. وفرح أولا وأخيراً لذلك الشيء ذاته دون أن يعيه، وهو أنه قد عاد بعد أن اجتاز القاعة المعروفة.

ناوبت الممرضة في الليالي التالية على التوالي. كانت تقوم أيضاً بعمل «الدادة». اليوم تأملها ألكسي بتروفيتش على نحو أفضل: وجه طيب نحيف ومسحوب، بعينين صافيتين هادئتين في صبر وتسامح معتادتين على المعاناة والألم، بل وأكثر قليلاً من اللازم. بحركة مهتزة مترددة

* لإنسان قد تجاوز أفضل فترات حياته، انحنت على نحو ما مضعضع، جرت بالممسحة على الأرض في حركات مقيدة محتشمة، وكلما كانت تنتصب، كانت تصيخ السمع إلى الأصوات في الممر، ومن الملاحظ أنها كانت تنحني إلى الأمام قليلاً.

- ما اسمك؟ سأل ألكسي بتروفيتش في بطء ، وهو يراقب في ألم كيف تلوي وجهها وتدفسه حتى تمسح العرق في الشال الموجود عليها.

- اسمي تاتيانا فاسيليفنا. أربعون سنة في الخدمة، تقريباً عشرون سنة هنا، أجابت ضاحكة من نفسها، وفي الوقت نفسه في فخر ودون أن تترك العمل.

- ولكن لماذا أنت هنا لليوم التالي على التوالي بدون راحة؟

- لا أحب الراحة. كنت أحبها في شبابي، مثل كل الشباب، والآن هذا هو الحال بعد أن عشت في المستشفى. قالت ذلك وهي تثير ضجة بتحريك المقاعد، وفي نفس الوقت متطلعة إلى ألكسي بتروفيتش بابتسامة ساخرة موجهة إلى نفسها.

- الراتب غير كاف؟. تدخل الجار: من غير الممكن أن يكون راتبك هنا قليلاً.

- لم يكن أبدا كبيرا لدى الممرضات. ولا في هذا المستشفى ولا في غيره. اشتغلت في مستشفى القضاء، وفي مستشفى المعهد، الفرق ليس كبيراً.

- هناك على الأقل، زوج؟ - سأل الجار في اهتمام.

- لا. مات

- هذا هو الحال في كل مكان- أكمل الجار في حزن وهو يلتفت إلى ألكسي بتروفيتش: لا يوجد زوج، ولكن الزوجة موجودة. علم الديموجرافيا يتحقق كله هنا.

ألقت عليه تاتيانا فاسيليفنا نظرة خاطفة.

- ويوجد أيضاً ثلاثة أحفاد- قالت بدون تعبيرات- ولدي ابنتي لا يوجد أيضاً زوج.

- ومن الضروري مساعدتهم؟

- ضروري.

- الأمر سيان، ففي هذا المستشفى أهون.

- هنا أسهل لأن المرضى أقل - راحت الممرضة توضح- ولكن المريض هنا باثنين. هم متقلبو الأطوار جداً، متعنتون وعصبيون. كم ذرفت هنا دموعي حتى تعلمت ضبط النفس...

- صنف من البشر- أومأ الجار العارف برأسه- نوعية. ما أكثر ما يستهزئون بالناس.

- نعم وافقت الممرضة التي بدأت تتمهل إلا أنهم يستهزئون الآن أكثر. يأتي أناس في غاية الفظاظة، لم ترغب أكثر من ذلك في ذكر ما كان يقال لها، وراحت تعمل من جديد ولكنها ما لبثت أن تركت العمل، ولكن أتعرفون؟ توجهت إلى ألكسي بتروفيتش. ربما لن يجروا لكم عملية. الخياطة عندكم في حالة جيدة. ولكنه الورم الالتهابي الكبير الذي نضح دما كثيرا في الداخل. إنهم لم يعالجوكم حتى النهاية. لو أمكن تصريف الورم.. إن فاديم سيرجييفتش قد طلب... ذكرت الدواء ولكن بتسمية

عويصة حتى أن نوسوف لم يتمكن من الاحتفاظ بها في ذاكرته، لو يرسلوا هذا الدواء، فسوف يكون الحظ حليفك.

نظرت إلى ألكسي بتروفيتش بابتسامة متوقّعة، ولكنه في المقابل لم يتمكن من إظهار سروره، وكان الأمر على نحو ما بالنسبة له سيان، ومع ذلك فقد رأى بوضوح في مكان ما هناك في أعماق جسده كيف أن الخياطة التي تعرضت للتمزق، والحواف المتهدبة الدامية للأنسجة قد تهدلت وراحت تهتز أثناء الحركة، وفي لحظة واحدة تحولت بمعجزة إلى موضع ممتقع قليلاً بخياطة متسقة مرتبة تكاد تكون من جراء تدخل قوة غريبة.

سلم نفسه بتلك الاستكانة السعيدة إلى حالة من الضعف إلى أن نام بعد نصف ساعة. وقبل استغراقه في النوم سمع، وهو مغمض العينين، صوت جاره:

- ولكن أين كنت تعمل؟

- في وزارة الغابات.

- أعشق الغابات، وصلت إلى أسماعه، كانت كلمات جديرة رائعة، وكان من الممكن أن يودع الإنسان الحياة بها.

IIIIIIIIIIIIIIIIII

انقضى النصف الثاني كله من ذلك اليوم في نوم متقطع، لزج وخانق. اقتلع ألكسي بتروفيتش نفسه منه، فقط، عندما كاد يختنق تماماً. وبمجرد أن انتزع نفسه تذكر على الفور الخياطة التي تقوم بوظيفتها بشكل جيد.

تَدَفّأ وتنشط قليلاً بفضل الحالة الجيدة، مد يده إلى الكوب المليء بالماء، ولكن لم تكن هناك قدرة على النهوض وعمل الشاي! أهمل وجبة العشاء وقد فاحت رائحة ماسخة لعصيدة الحنطة السوداء من الطبق المغطى على المائدة الصغيرة. انقلبت العتمة إلى ضوء كهربائي، وضعت الحقن ممرضة ثالثة جديدة بوجه رفيع حاد مثل الطائر، وشعر أسود مفرود على كتفيها المرتفعتين العاليتين، وصوت قوقازي حاد. الجار يدخل أحياناً، ويخرج أحياناً أخرى بعد أن يغير الأصوات في التلفزيون ويثير صرير السرير وهو يزفر. قبل الإغلاق مر الطبيب المناوب، ذلك الشاب الطويل جداً والذي يحني رأسه الصغير. ارتفعت درجة حرارة ألكسي بتروفيتش مرة أخرى، ورأى المقبلين بصورة مشوشة في سراب مرتعش معاكس للحائط الأبيض، ثم استغرق في النوم ثانية.

استيقظ في الليل، قبل ساعة الإيقاظ بكثير، موقظاً القسم كله. استيقظ بإحساس أنه قد نام نوماً كافياً. كانت الوسادة مبللة والقميص أيضاً. كان قد التصق، في حالة الحمى والإغماء، بالسرير بشكل محكم، لدرجة أنه سحب خلفه الملاءة أثناء حركته. وبمجرد أن عثر ألكسي بتروفيتش على المنشفة فوق مسند السرير حتى فردها على ظهره وأسدل طرفيها على صدره وعقدهما، ثم نزع القميص المبلل عن جسده، وقلب الوسادة. خلف النافذة، ضجت رياح مقلقة، وكلما توترت واشتدت في هبات عاصفة مُصَفِّرة، سقط شيء ما في مكان ما بصوت هادر مدوٍّ، وعلا صرير الأشجار في يأس، وخشخشت الأغصان العارية المرتفعة. تأرجحت المصابيح الكهربائية على الحوامل، وتأرجح الضوء المنثور من النافذة وتحرك سريعاً في الغرفة. أخذ الجار يُشَخِّر بصوت مُجْهَد وغليظ وهو

يدحرج في حلقه فرقعات مدوية كل دفعة منها تنتهي بحركة ناسور كما عند الطفل الوليد.

كل شيء كان مضطرباً- الرياح التي تئز بحنق، والضوء المتوعد في إصرار، المضطرب الذي يتواثب على الجدار، والشخير العالي جداً وذلك الناسور الساخر. استلقى ألكسي بتروفيتش، أخذ ينصت وهو يمتلئ بكل ما حوله من أصوات راحت تتسع وتمتد وتنسكب بعمق عبر المسافات، وهي الآن ليست ضجيجاً، وإنما عذاب ومعاناة في حاجة إلى قرار ما.

فجأة ظهر صوت آخر، جرس متواصل متعنت في الممر. لم يكن صوت جرس التليفون، وإنما صوت عالٍ لا ينقطع، مثل الصفارة. تناهت إلى أسماعه أصوات خطوات راكضة، سكن الجرس، وخيم الصمت لعدة دقائق في الممر، وفجأة علت مرة أخرى خطوات مسرعة وأصوات فزعة تتحدث في التليفون وأصوات قصيرة متوترة خلف الباب. نهض ألكسي بتروفيتش على كوعيه وراح ينظر من الباب: شيء ما خطير قد حدث. ساد في الممر هرج ومرج، كانوا يركضون من هذه الناحية ومن تلك. يدفعون بتعجل عربة متحركة مقرقعة، وطلبوا بالتليفون العثور فوراً على فاسيلي ستيبانوفيتش. كان موضع الممرضة قريباً، فراحت صرخاتها المبحوحة تظهر تارة، وتختفي تارة. بعد ذلك ابتعد كل شيء ناحية اليسار، في عمق الممر الطويل. ران الهدوء طويلاً، بينما الرياح وحدها كانت تقرع، وتقرع في عناد. وبحزن شديد، متوتر ومرعوب، في نفسه وعلى نفسه، على الإنسان بشكل عام، راح ألكسي بتروفيتش ينتظر. وفجأة ظهرت حركة من جهة اليسار، موكب صامت، عدة أقدام- مرة واحدة - تدفع نقالة ثقيلة ثم اختفى. والآن بدون استعجال، راحت خطوات المرافقين المتبقين تتباعد

في هدوء وتتابع، ثم تبعتها خطوات لشخص آخر في المؤخرة.

امتد الليل. لم يأت في ذهن ألكسي بتروفيتش أن ينظر ولو مرة واحدة في ساعته: كأن الزمن قد توقف: كان طوال الوقت يستمع لشيء ما، ينتظر صوتا ما نهائيا ويكاد يكون قاطعا، على الأرجح، أنينا ووداعا وفراقا. عادت الممرضة إلى طاولتها. وفي توتر وغضب راحت تتحدث في التليفون بصوت متماسك ومتقلب.

لم يكن ألكسي بتروفيتش خائفاً من الموت، وإنما من عملية الموت نفسها من الاحتضار. كان يجب أن يتم ذلك بجدارة وكرامة. وبعد ذلك سيحوم مع الأرض، ويصبح جزءاً من نسيجها الحي. ويحوّم، ويحوّم إلى ما لا نهاية دون أن يتدخل في أي شيء. لم يكن ينتظر ذكرى طويلة عنه، ففي القريب العاجل سوف تضربها الأمطار والثلوج وتجلدها، وتذيبها الشمس، ثم تطمرها أحمال الأيام الجديدة وأثقالها. أولاداً وأحفاداً، ألم يفعل هو أيضاً نفس ذلك الشيء بالضبط مع والديه؟ من وقت إلى آخر يأتيه تيار حزن غامض، يقلقه بلمساته الوجلة، ولكنه مع ذلك لا يعمل على استبقائه، أو التمسك به، فليس لديه وقت لذلك. لن يكون لدى أولاده أيضاً، كما تملي الأزمنة الجديدة، أي وقت يذكر. عندما نخرج يجب أن نودّع إلى الأبد. أليس هو ذلك الريح... المقلقة، العنيدة بهباتها الكئيبة التي تطبق على الروح.. أليس هو حقاً؟... لم يتماد ألكسي بتروفيتش في تفكيره الذي سوف يصدمه بالممنوع. الريح هي الريح. و ألكسي بتروفيتش كان يعرف من أين تأتي الريح. ولكن ما قيمة المعرفة في مثل تلك الليلة، ليست هناك أية معرفة. الآن فقط حملوا نقالة طويلة، بطول قامة إنسان، فهل سيستمر كل شيء على صورته دون تغيير؟ سيأتي يوم جديد، فهل

سيكون ذلك اليوم مشابها للأمس؟ ولماذا هو ألكسي بتروفيتش، يتشبث بالحياة؟ لا شيء، لا شيء إطلاقا يجعله يبقى هنا بمقتضى أنه مختار. هو ذاته يبتذل ذكراه، يحولها إلى شكل متقوض كئيب، حتى أثناء الحياة التي فقدت ملامحها.

تحرك ألكسي بتروفيتش معترضاً: ليس الأمر كذلك. ليس كذلك، ليس من حقه أن يقرر هو ذلك. أربع مرات دخل غرفة العمليات، أربع مرات وكأنهم كانوا يضعونه فوق الميزان الذي يقيس كميتين معلومتين، ثم صرفوه إلى حيث أتى. شملته برودة عندما قدمَ وزنه في المرة الأخيرة. كان تقريباً، في غاية الضآلة الأمر الذي جعلهم يستدعونه مرة ثانية. أخذ ينصت إلى نفسه في توتر وقد نَحى جميع الأصوات الغريبة الأخرى. بيد أنه لم يكن ينصت، وإنما كان يرى، وهو يلتفت إلى الوراء متلصصاً، كيف أضاف إلى تلك الكفة التي راحت تزحف إلى أعلى. طفرت الدموع من عيني ألكسي بتروفيتش: لا، الحياة، الحياة! مسحها بألم عذب وثقيل وهو يشعر براحة كاسحة. وضع في ذلك التضرع كل ما لديه من قوة، ثم استغرق في النوم من شدة الإعياء.

!!!!!!!!!!!!!!!!!!

اتضح أن تلك كانت ليلة تحوُّل ، وبدأ بعدها ألكسي بتروفيتش طريقه إلى الشفاء.

استيقظ في سعادة: لم تكن هناك حمى، السعال ينبئ في يسر بنهاية المرض، وراودته رغبة في الحركة . شعر في موضع الوجع بثقل وكأن

السعال تحت تأثير الشاي الساخن، ولكن النهوض أيضا سوف ينشّطه. طارت على ألكسي بتروفيتش من أعماق الشاشة، كما لو كان من نفق، طيور كاسرة هائلة الحجم، واحدة تلو الأخرى: فتيات عاريات بأرجل مفتوحة يصحن في اللحظة الأخيرة بنهم ورغبة بكلمة إعلانية ما، خادعة، لها شكل... يا إلهي، اغفر لي وارحمني! حتى رؤية ذلك على انفراد كانت شيئاً بذيئاً، ولم يكن من الممكن الاستدارة إلى أية جهة. كانت الفتيات يندفعن في تحليقات أرضية سريعة من الدولاب المطلي باللون البني الغامق، الواقف خلف سرير الجار، ومن المرآة ذات المصاريع القائمة وراء سرير ألكسي بتروفيتش. ثم تغيرت الفقرة الإعلانية: انتظمت الفتيات اللاتي رحن يهبطن في صف واحد، وهن يرجرجن مفاتنهن على أصوات الأجراس، ويصلصلن بأسنانهن في وقت واحد مع ابتسامات ساطعة وقد قبضن أثناء هبوطهن على علب ما، وأخذن يدلكن أنفسهن في جنون بدهان ما « يا إلهي! راح ألكسي بتروفيتش يبتهل- وهذا ... وهذا... ولكنه على أية حال لم يتمكن من اكتشاف « ما هذا».

عاد الجار بالصحف. اتضح أنهم يبيعونها بالطابق الأول. في تلك اللحظة حضروا من أجل ألكسي بتروفيتش، وكان عليه، شاء أم لم يشأ، أن ينهض. سار يجر قدميه خلف الممرضة التي كانت تركض مبتعدة عنه، ثم تتوقف في انتظاره قبل كل انعطافة. دخلا نفس الحجرة التي دخلها في الليل. ولكن ألكسي بتروفيتش لم يتذكر على الإطلاق أين كان ذلك، ولم يتذكر أيضا المصعد الذي كان عليه أن يصعد فيه، وفقط عندما انطرح على الفراش رافعاً عينيه نحو السقف، عرف الحجرة.

ومع ذلك، ففي طريق العودة بدون الممرضة، راح يسأل مرة أخرى عن الطريق إلى قسمه.

كان جاره نائماً، والصحف متناثرة فوق البطانية. أما ذلك «الشرير» فقد أجلس معبودي شاشته في حلقة خلف طاولة صحفية واطئة، وراح يدق في العقول نفس الأغنية التي تتردد في الخارج عن الهناء والبحبوحة واليسر. وكان كل ذلك بأصوات تمثيلية مُدَّعِيَة مثل مجموعة من الملتحين الذين يتمتمون في سرعة وتصنع. بدا لألكسي بتروفيتش أن ذلك فيلم كارتون، فضغط بارتياح شديد على زر الإغلاق، وراح ينظر بمتعة كبيرة، كيف اندفع الملتحون مبتعدين في سرعة وهم يتحولون إلى دُمى مما سَلاه وهون عليه.

تلاشى، تماماً، نهار مارس المتجهم. قبعت الغابة، من خلف النافذة، تحت أحزان متجمدة. أصبح صعبا في ذلك التشابك تمييز أين أغصان أشجار الزيزفون السوداء، وأين أشجار الاسفندان. ذاب الثلج الليلي، وظهرت الأرض مبللة حزينة في فرشة عارية من الأوراق السمراء الداكنة، وتهدلت السماء عند الأفق ببقع مليئة بالماء. أما طريق التنزه الخرساني الصغير الذي يقود إلى داخل الغابة فقد كان خاليا.

استلقى ألكسي بتروفيتش مرة ثانية. بدأ التصدع والألم ليس فقط في مكان الوجع، وإنما في الجسد كله. صارعته سِنة نعاس، ولكن السعال لم يمكنه من النوم. تناهى إليه صوت الممرضة من الممر، وكانت طاولتها في مقابل الباب تقريباً. ومن وقت لآخر كان يصله وقع خطوات: مسرعة، بكعوب مطرقعة لطاقم الممرضات، وخفيفة بطيئة للمرضى. دوّي، بصوت مكتوم، هدير راديو بعيد: كل ذلك كان بمفعول المخدر.

جاءوا بقطّارة على حامل عال. مد ألكسي بتروفيتش يده بشكل يحفظه عن ظهر قلب، ففي جميع المستشفيات سمع نفس الشيء «لنعمل بقبضتنا» كي نستحث الدم، أخذ يطبق كفه ويبسطها إلى أن شعر بالعاصبة الضاغطة على يده من أعلى المرفق تتوتر، ولم يشعر كيف انزلقت الإبرة داخل الوريد. وفي شبه نعاس رأى على المنضدة الصغيرة، باستثناء القارورة المثبتة في الحامل، قارورتين مُكرّشتين يجب ضخهما في الوريد، وهذا يستغرق حوالي الساعتين.

شعر ببرودة. طلب من الممرضة أن تغطيه بأي شيء. راح يستدفئ تحت البطانية التي ألقيت عليه. اختبأ متبرما، وفي الوقت نفسه بتدلل وهو يتوجع متعزيا. تصاعد الألم أيضاً في فخذه. أخذ ينتشر في بطء. «لا يهم، لا يهم» – مرة أخرى فكر ألكسي بتروفيتش في تشتت، وظهرت أمامه وجوه يعرفها تسمرت في حالة توقع: إما مودعة إياه أو مستقبلة.

اقتربت الممرضة، فأرغم نفسه على فتح عينيه. نظر شذرا إلى القطّارة. سال السائل الأصفر، سار بطول الخرطوم الشفاف، راح ينسكب في الوريد بذراعه الخامدة الممدودة. لم يشعر بحضور أي شيء غير عادي أو غريب. وغاص ثانية، في ضعف لذيذ، في الدفء.

لسبب ما كان عليه أن يسترد وعيه. فتح عينيه.. كان الطبيب واقفا في العتمة أمامه وقد تميّز في وضوح بمعطفه الأبيض وطاقيته.

– ماذا، يادكتور؟ كيف الحال هناك؟ متى العملية؟– سأل ألكسي بتروفيتش محاولاً ألا يخرج صوته ضعيفاً.

– سنرى. سوف نرى. بدا أنه قد حضر خصيصاً لكي يتفحص ألكسي

بتروفيتش. وبعدما نظر إليه دون أن يلمسه، انصرف واندفع ألكسي بتروفيتش الهادئ المطمئن، الذي لم يكن عليه أن ينهض، بسعادة من الضفة الصلبة القاسية حيث رسا قليلاً، وراح يسبح مثل الضفدع البشري في بطء وفتور، يسبح مرة أخرى في الأعماق اللذيذة.

IIIIIIIIIIIIIIIIII

في اليوم التالي منعوا نوسوف من النهوض. جاءوا إليه بالطعام على عربة يد مقعقعة، ما كاد يتناول منه قليلاً حتى تركه من شدة الإعياء، وقد شعر كيف يستقر الطعام في المعدة بشكل متعب وغير مريح. طلع النهار، مرة أخرى مكفهراً ورطبا. تسرب إلى النافذة ضوء رمادي قاس. قفز شيء ما في موضع الألم، من نهايته إلى نهايته، وأخذ يدق في وجع. سرى مفعول الدواء على شيء واحد: أصبح السعال أقل، وأخذ يتنحنح بدون جهد أو توتر، ومن ثم استطاع ألكسي بتروفيتش أن ينام أكثر. كان يسقط في النوم مباشرة ، بمجرد أن يغمض عينيه، ولكن هل كان ذلك نوماً؟، من الصعب أن نقول، فكأنه كان يغوص في هوة واحدة لا تتغير، بمياه غير نقية وهواء راكد. لم تكن حالته فيها سيئة أو جيدة، كانت تسحبه إلى داخلها وتضبب وعيه. جاءوا بالحقن والأقراص والأجهزة، نفّذ كل ما طُلِب منه بصورة ميكانيكية، تطلع بلا معنى لوهلة إلى القامات المهتزة في التلفزيون، ورغما عنه أغلق عينيه ثانية.

انتابته من وقت إلى آخر تلك الصحوات التي كانت تعيده إلى الحياة. تذكر، في واحدة منها، أن زوجته قلقة لا تستقر في مكان، ولن يسمحوا لها بدخول ذلك المستشفى، في ظل نظامه هذا، بدون تصريح؛ لذا طلب

من جاره أن يتصل بزوجته ويخبرها بأنه يقول لها إن التصريح غداً. يجب أن يكون الحال في الغد أفضل. طلب ذلك من جاره، ووقف هذا الأخير مستعداً، إلا أن ألكسي بتروفيتش لم يتمكن من العثور في ذاكرته على رقم التليفون. استعصت عليه الذاكرة تماماً. استعصى عليه كل شيء. وفي النهاية تذكر عندما ولج إلى الذاكرة من ناحية أخرى: تخيل كيف كتبتْ الأعداد على البطاقة الصفراء الصغيرة الملصقة على جهاز التلفزيون. وبعد حصوله على النتيجة، تيقظ تماماً.

غمغم الجار بصورة غير مفهومة وهو يتأمل نفسه في المرآة، ثم خرج.

الذهاب لإجراء عملية جراحية، إذا كان لأول مرة، أمر قاس. عاش الإنسان كما خلقه الخالق، فجأة يحدث شيء ما يتطلب تدخلاً سريعاً وإصلاحاً. في ذلك يوجد شيء ما غير طبيعي، فظ، قهري. خصوصاً الآن، عندما صاروا يغيرون الأعضاء. كل ما هو إلهي رائع ووحيد وليس له بديل انحدر إلى مستوى الميكانيكي والتركيبي. يمكن استئصال المرارة، إزالة كلية غير نافعة، رئة، تقصير أو إطالة- مثل الأنابيب- طرق الإخراج والتصريف، استئصال من مكان وترقيع في مكان آخر، خياطة يد أو قدم مقطوعة، رتق المثانة من الزائدة الدودية. لقد وصل علم الإصلاح والترميم إلى نتائج لم يرها أحد من قبل، وما يزال يتطور ويكتمل أكثر، وأكثر. عندما تتدخل الصنعة في ربانية الوعاء البشري وتتجادل معه، تصير هي ذاتها بالتدريج إلهية وتطالب، زاعمة، بالدور الأعلى. إنقاذ الحياة يبرر كل شيء طالما كان الإنسان حياً. إلا أن كل تدخل إنقاذي من ذلك النوع تترسب فيه بالضرورة، وتبقى حِسْبَة ما خاصة.. فلمن ستُقَدّم هذه الحسبة بعد ذلك؟ لقد اجتاز ألكسي بتروفيتش طاولة العمليات أربع مرات. يعيش

على الترميم مثل جهاز تسخين بمضخة، ولكن بعد كل عملية كان ينمو بداخله، دون إرادة، هلع من شيء ما وكأنه غدر جديد.. لم يستطع تحديد الشيء المغدور، أو ما كان يثير رعبه بالذات، ومع ذلك لم يداخله إحساس بالاستهتار أبدا.

عاد الجار، مخشخشاً بالصحف، دون أن يتحدث بأية كلمة وانشغل بترتيبها.

- هل نسيتني، يا أنطون إليتش؟- سأل نوسوف.

- أقول بصراحة، لم أنس- أجاب الجار بحدة فجائية، ناطقا بوضوح وبالضبط، وفي حالة إعلاء للمبادئ، ثم اختلج وجهه- لم أود تلطيخ يدي.

- كيف ذلك؟ - لم يفهم ألكسي بتروفيتش - ما هذا الذي تقوله؟

- لا يوجد في صحفكم سوى بروباجندا عدائية. شر فقط، أقرأ صحفي لو أردت.

- بالطبع ومن الممكن صحفكم أيضا. رد ألكسي بتروفيتش في ضيق متأملاً جاره بألم وخجل.

وفجأة انتابته هو الآخر حالة سورة عاجزة يرثى لها- وهل حقاً هناك عندكم- أشار بيد مرتعشة نحو التلفزيون- لا توجد بروباجندا عدائية؟ ليس حضاً على الزنا؟ ليس استغفالاً؟

- لا، ولكن حتى إذا كان الأمر كذلك؟ فاستغفال الحمقى هو الذي يصنع منهم عقلاء.

أليست هذه قسوة زائدة من قبلك؟ وأيضاً مجازفة، وربما...

- أنا لم أقصد شخصك أنت.

- شكرا. ولكن إذا لم أكن أنا وأنت في عداد هؤلاء الحمقى، ولا أعطيتم هذا- أوما ألكسي بتروفيتش إلى التلفزيون بكراهية- الشيء العجيب فترة للراحة. فلا أحد يعرف كيف يؤثر هذا على العقلاء...

- تكلم، إذا كان يزعجك. لماذا لا تقول؟ وستتفق.

«هل حقاً يصيبه الجبن هكذا قبل العملية؟ - أغلق ألكسي بتروفيتش عينيه مستغرقا في التفكير- ولكن في هذه الحالة، يبدو لي أن الأمر يجب أن يكون على نحو معاكس بالضرورة». وراح يتذكر ما كان يحس به هو ذاته قبل العملية. كان من الممكن ألا يتذكر أيضاً ذلك الاغتمام.. والتحسر على النفس، وفي نفس الوقت الاهتمام الخاص والزائد بكل ما يحيط، وكأنك تحاول التشبث بشيء ما في قوة والاهتمام بالناس والتصالح معهم، والاستعداد لتقديم العون والمساعدة. عادة ما يكون ذلك حزينا ولسبب ما في غاية البساطة! فلم يعد هناك أي شيء بعد الآن يتوقف عليك. حيث إنك تكون، كما لم تكن أبدا، حرا طليقاً، متوجهاً إلى حيث يعيش الخلود. ولكن ذلك يتوقف، حتى قبل العملية وقبل الجراح، على نظرة الناس إليك، تلك... تلك التي تتجسد في صورة غير مادية، مثل الظل، لملاكك الحارس، الذي يقف غير بعيد عنك. ففي هذه الحالة لا يجوز الأمر بدون ملاك حارس. قام ألكسي بتروفيتش بإجراء عملية التفكير والتأمل على نفسه. والآن، أين ملاكه الحارس، ملاك ألكسي بتروفيتش، ألم يتعب بعد من مرافقته؟

ذات مرة بعد إجراء إحدى العمليات، ربما الثانية التي كان من الممكن أن تنتهي بصورة مؤسفة، رأى ألكسي بتروفيتش حلماً. كان قد عاد إلى وعيه، بعد المخدر في غرفة الإنعاش. وكان السرير لسبب ما مرفوعاً إلى أعلى، على مستوى الطاولة الواقفة إلى جواره. وعلى غير مبعدة منه وقفت امرأة تصرخ وتئن، والخطوات المسرعة تقترب وتبتعد. لم يكن الجو خانقاً، ولكن الهواء بدأ وكأنه قد أُعد خصيصاً بهذه الدرجة من الجفاف والوخز. لم يكن من الممكن أن يستيقظ ألكسي بتروفيتش لو لم تحركه الممرضة وتخبطه على خديه. لسبب ما كان الأمر يتطلب ألا ينام. وأفاق في حالة من القشعريرة الفظيعة، كان جسده يهتز اهتزازاً شديداً، ودون أن يسمع صوته طلب أن يغطوه. لم تزل القشعريرة. «لا تنم، لا تنم» كررت الممرضة وهي تتناول يده ممسكة إياها عند المرفق لكي تعثر على الوريد. كانت لديه رغبة في مساعدتها، ولكن جفنيه اللذين ارتفعا بالكاد وبثقل فوق طاقته راحا ينغلقان مرة وراء الأخرى.

عندئذ فقط رأى ذلك الحلم، قاعة هائلة بدون نوافذ وقد أضيئت على نحو شديد السطوع، وجدران معلقة عليها لوحات في إطارات خفيفة مستطيلة، على اللوحات شيء ما تجريدي، قامات غير معتدلة خطوط ضعيفة متقطعة ومهشمة. وهو يبحث عن مخرج ولا يمكنه العثور عليه. راح يلف ويدور، مرة وراء الأخرى في القاعة رافعاً جميع اللوحات واحدة بعد الثانية حيث كان من الممكن أن يكون خلفها نافذة أو فتحة. ولا شيء سوى ذلك الجدار الأبيض الأصم نفسه. يبدأ البكاء في يأس مدركاً أنه من المستحيل أن يبقى هنا. أخذ يركض، ويركض وقد فقد عقله تماماً، بينما صار الضوء أكثر لمعاناً وسطوعاً... ولم يتبق سوى لحظة حتى يحرقه

ويحوله إلى رماد.

تمكنت الممرضة بالكاد من إفاقته. واصلت الدموع انهمارها، طلب من الممرضة ألا تبتعد وهو يتشبث بيدها مثل طفل صغير.«لا تنم- تضرعتْ إليه- جرب ألا تغمض عينيك، تماسك».

وطوال عشرين عاماً بعد ذلك كلما تذكر ألكسي بتروفيتش ذلك الحديث عندما تمكن في جدية وعزم من إظهار إرادته، كان يبدأ الحكي قبل كل شيء من تلك القوة الخارقة التي حشدها آنئذ، وهو في حالة شبه الغيبوبة من أجل ألا ينزلق في حالة فقدان الوعي.

منذ ذلك الحين وهو يخشى تكرار ذلك الحلم. لكنه لم يكن حلماً كما بدا له، وإنما شيء ما مختلف ووداعي، ومن الضروري أن يعاوده في وقت ما. كان يتذكر بكل ذلك الوضوح والدقة، تلك القاعة الصماء الغارقة في الضوء الكهربائي الساطع الذي لا يحتمل، ويتذكر نفسه بالدموع المنهمرة على وجهه في سرعة، وأن ذلك من الضروري أن يكون في مكان ما غير بعيد منه. وفي المرة الأخيرة بالمستشفى، عندما عاد إلى وعيه بسهولة بعد تخدير خفيف، فرح أكثر من المرات السابقة، ربما لأنه كان يثق في قدرته بشكل أقل. وفرح أولا وأخيراً لذلك الشيء ذاته دون أن يعيه، وهو أنه قد عاد بعد أن اجتاز القاعة المعروفة.

ناوبت الممرضة في الليالي التالية على التوالي. كانت تقوم أيضاً بعمل «الدادة». اليوم تأملها ألكسي بتروفيتش على نحو أفضل: وجه طيب نحيف ومسحوب، بعينين صافيتين هادئتين في صبر وتسامح معتادتين على المعاناة والألم، بل وأكثر قليلاً من اللازم. بحركة مهتزة مترددة

لإنسان قد تجاوز أفضل فترات حياته، انحنت على نحو ما مضعضع، جرت بالممسحة على الأرض في حركات مقيدة محتشمة، وكلما كانت تنتصب، كانت تصيخ السمع إلى الأصوات في الممر، ومن الملاحظ أنها كانت تنحني إلى الأمام قليلاً.

- ما اسمك؟ سأل ألكسي بتروفيتش في بطء ، وهو يراقب في ألم كيف تلوي وجهها وتدفسه حتى تمسح العرق في الشال الموجود عليها.

- اسمي تاتيانا فاسيليفنا. أربعون سنة في الخدمة، تقريباً عشرون سنة هنا، أجابت ضاحكة من نفسها، وفي الوقت نفسه في فخر ودون أن تترك العمل.

- ولكن لماذا أنت هنا لليوم التالي على التوالي بدون راحة؟

- لا أحب الراحة. كنت أحبها في شبابي، مثل كل الشباب، والآن هذا هو الحال بعد أن عشت في المستشفى. قالت ذلك وهي تثير ضجة بتحريك المقاعد، وفي نفس الوقت متطلعة إلى ألكسي بتروفيتش بابتسامة ساخرة موجهة إلى نفسها.

- الراتب غير كاف؟. تدخل الجار: من غير الممكن أن يكون راتبك هنا قليلاً.

- لم يكن أبدا كبيرا لدى الممرضات. ولا في هذا المستشفى ولا في غيره. اشتغلت في مستشفى القضاء، وفي مستشفى المعهد، الفرق ليس كبيراً.

- هناك على الأقل، زوج؟ - سأل الجار في اهتمام.

- لا. مات

- هذا هو الحال في كل مكان- أكمل الجار في حزن وهو يلتفت إلى ألكسي بتروفيتش: لا يوجد زوج، ولكن الزوجة موجودة. علم الديموجرافيا يتحقق كله هنا.

ألقت عليه تاتيانا فاسيليفنا نظرة خاطفة.

- ويوجد أيضاً ثلاثة أحفاد- قالت بدون تعبيرات- ولدي ابنتي لا يوجد أيضاً زوج.

- ومن الضروري مساعدتهم؟

- ضروري.

- الأمر سيان، ففي هذا المستشفى أهون.

- هنا أسهل لأن المرضى أقل - راحت الممرضة توضح- ولكن المريض هنا باثنين. هم متقلبو الأطوار جداً، متعنتون وعصبيون. كم ذرفت هنا دموعي حتى تعلمت ضبط النفس...

- صنف من البشر- أومأ الجار العارف برأسه- نوعية. ما أكثر ما يستهزئون بالناس.

- نعم وافقت الممرضة التي بدأت تتمهل إلا أنهم يستهزئون الآن أكثر. يأتي أناس في غاية الفظاظة، لم ترغب أكثر من ذلك في ذكر ما كان يقال لها، وراحت تعمل من جديد ولكنها ما لبثت أن تركت العمل، ولكن أتعرفون؟ توجهت إلى ألكسي بتروفيتش. ربما لن يجروا لكم عملية. الخياطة عندكم في حالة جيدة. ولكنه الورم الالتهابي الكبير الذي نضح دما كثيرا في الداخل. إنهم لم يعالجوكم حتى النهاية. لو أمكن تصريف الورم.. إن فاديم سيرجييفتش قد طلب... ذكرت الدواء ولكن بتسمية

عويصة حتى أن نوسوف لم يتمكن من الاحتفاظ بها في ذاكرته، لو يرسلوا هذا الدواء، فسوف يكون الحظ حليفك.

نظرت إلى ألكسي بتروفيتش بابتسامة متوقّعة، ولكنه في المقابل لم يتمكن من إظهار سروره، وكان الأمر على نحو ما بالنسبة له سيان، ومع ذلك فقد رأى بوضوح في مكان ما هناك في أعماق جسده كيف أن الخياطة التي تعرضت للتمزق، والحواف المتهدبة الدامية للأنسجة قد تهدلت وراحت تهتز أثناء الحركة، وفي لحظة واحدة تحولت بمعجزة إلى موضع ممتقع قليلاً بخياطة متسقة مرتبة تكاد تكون من جراء تدخل قوة غريبة.

سلم نفسه بتلك الاستكانة السعيدة إلى حالة من الضعف إلى أن نام بعد نصف ساعة. وقبل استغراقه في النوم سمع، وهو مغمض العينين، صوت جاره:

- ولكن أين كنت تعمل؟

- في وزارة الغابات.

- أعشق الغابات، وصلت إلى أسماعه، كانت كلمات جديرة رائعة، وكان من الممكن أن يودع الإنسان الحياة بها.

!!!!!!!!!!!!!!!!!!

انقضى النصف الثاني كله من ذلك اليوم في نوم متقطع، لزج وخانق. اقتلع ألكسي بتروفيتش نفسه منه، فقط، عندما كاد يختنق تماماً. وبمجرد أن انتزع نفسه تذكر على الفور الخياطة التي تقوم بوظيفتها بشكل جيد.

تَدَفّأ وتنشط قليلاً بفضل الحالة الجيدة، مد يده إلى الكوب المليء بالماء، ولكن لم تكن هناك قدرة على النهوض وعمل الشاي أهمل وجبة العشاء وقد فاحت رائحة ماسخة لعصيدة الحنطة السوداء من الطبق المغطى على المائدة الصغيرة. انقلبت العتمة إلى ضوء كهربائي، وضعت الحقن ممرضة ثالثة جديدة بوجه رفيع حاد مثل الطائر، وشعر أسود مفرود على كتفيها المرتفعتين العاليتين، وصوت قوقازي حاد. الجار يدخل أحياناً، ويخرج أحياناً أخرى بعد أن يغير الأصوات في التلفزيون ويثير صرير السرير وهو يزفر. قبل الإغلاق مر الطبيب المناوب، ذلك الشاب الطويل جداً والذي يحني رأسه الصغير. ارتفعت درجة حرارة ألكسي بتروفيتش مرة أخرى، ورأى المقبلين بصورة مشوشة في سراب مرتعش معاكس للحائط الأبيض، ثم استغرق في النوم ثانية.

استيقظ في الليل، قبل ساعة الإيقاظ بكثير، موقظاً القسم كله. استيقظ بإحساس أنه قد نام نوماً كافياً. كانت الوسادة مبللة والقميص أيضاً. كان قد التصق، في حالة الحمى والإغماء، بالسرير بشكل محكم، لدرجة أنه سحب خلفه الملاءة أثناء حركته. وبمجرد أن عثر ألكسي بتروفيتش على المنشفة فوق مسند السرير حتى فردها على ظهره وأسدل طرفيها على صدره وعقدهما، ثم نزع القميص المبلل عن جسده، وقلب الوسادة. خلف النافذة، ضجت رياح مقلقة، وكلما توترت واشتدت في هبات عاصفة مُصَفِّرة، سقط شيء ما في مكان ما بصوت هادر مدوٍّ، وعلا صرير الأشجار في يأس، وخشخشت الأغصان العارية المرتفعة. تأرجحت المصابيح الكهربائية على الحوامل، وتأرجح الضوء المنثور من النافذة وتحرك سريعاً في الغرفة. أخذ الجار يُشَخّر بصوت مُجْهَد وغليظ وهو

يدحرج في حلقه فرقعات مدوية كل دفعة منها تنتهي بحركة ناسور كما عند الطفل الوليد.

كل شيء كان مضطرباً- الرياح التي تئز بحنق، والضوء المتوعد في إصرار، المضطرب الذي يتواثب على الجدار، والشخير العالي جداً وذلك الناسور الساخر. استلقى ألكسي بتروفيتش، أخذ ينصت وهو يمتلئ بكل ما حوله من أصوات راحت تتسع وتمتد وتنسكب بعمق عبر المسافات، وهي الآن ليست ضجيجاً، وإنما عذاب ومعاناة في حاجة إلى قرار ما.

فجأة ظهر صوت آخر، جرس متواصل متعنت في الممر. لم يكن صوت جرس التليفون، وإنما صوت عالٍ لا ينقطع، مثل الصفارة. تناهت إلى أسماعه أصوات خطوات راكضة، سكن الجرس، وخيم الصمت لعدة دقائق في الممر، وفجأة علت مرة أخرى خطوات مسرعة وأصوات فزعة تتحدث في التليفون وأصوات قصيرة متوترة خلف الباب. نهض ألكسي بتروفيتش على كوعيه وراح ينظر من الباب: شيء ما خطير قد حدث. ساد في الممر هرج ومرج، كانوا يركضون من هذه الناحية ومن تلك. يدفعون بتعجل عربة متحركة مقرقعة، وطلبوا بالتليفون العثور فوراً على فاسيلي ستيبانوفيتش. كان موضع الممرضة قريباً، فراحت صرخاتها المبحوحة تظهر تارة، وتختفي تارة. بعد ذلك ابتعد كل شيء ناحية اليسار، في عمق الممر الطويل. ران الهدوء طويلاً، بينما الرياح وحدها كانت تقرع، وتقرع في عناد. وبحزن شديد، متوتر ومرعوب، في نفسه وعلى نفسه، على الإنسان بشكل عام، راح ألكسي بتروفيتش ينتظر. وفجأة ظهرت حركة من جهة اليسار، موكب صامت، عدة أقدام- مرة واحدة - تدفع نقالة ثقيلة ثم اختفى. والآن بدون استعجال، راحت خطوات المرافقين المتبقين تتباعد

في هدوء وتتابع، ثم تبعتها خطوات لشخص آخر في المؤخرة.

امتد الليل. لم يأت في ذهن ألكسي بتروفيتش أن ينظر ولو مرة واحدة في ساعته: كأن الزمن قد توقف: كان طوال الوقت يستمع لشيء ما، ينتظر صوتا ما نهائيا ويكاد يكون قاطعا، على الأرجح، أنينا ووداعا وفراقا. عادت الممرضة إلى طاولتها. وفي توتر وغضب راحت تتحدث في التليفون بصوت متماسك ومتقلب.

لم يكن ألكسي بتروفيتش خائفاً من الموت، وإنما من عملية الموت نفسها من الاحتضار. كان يجب أن يتم ذلك بجدارة وكرامة. وبعد ذلك سيحوم مع الأرض، ويصبح جزءاً من نسيجها الحي. ويحوّم، ويحوّم إلى ما لا نهاية دون أن يتدخل في أي شيء. لم يكن ينتظر ذكرى طويلة عنه، ففي القريب العاجل سوف تضربها الأمطار والثلوج وتجلدها، وتذيبها الشمس، ثم تطمرها أحمال الأيام الجديدة وأثقالها. أولاداً وأحفاداً، ألم يفعل هو أيضاً نفس ذلك الشيء بالضبط مع والديه؟ من وقت إلى آخر يأتيه تيار حزن غامض، يقلقه بلمساته الوجلة، ولكنه مع ذلك لا يعمل على استبقائه، أو التمسك به، فليس لديه وقت لذلك. لن يكون لدى أولاده أيضاً، كما تملي الأزمنة الجديدة، أي وقت يذكر. عندما نخرج يجب أن نودّع إلى الأبد. أليس هو ذلك الريح... المقلقة، العنيدة بهباتها الكئيبة التي تطبق على الروح.. أليس هو حقاً؟... لم يتماد ألكسي بتروفيتش في تفكيره الذي سوف يصدمه بالممنوع. الريح هي الريح. و ألكسي بتروفيتش كان يعرف من أين تأتي الريح. ولكن ما قيمة المعرفة في مثل تلك الليلة، ليست هناك أية معرفة. الآن فقط حملوا نقالة طويلة، بطول قامة إنسان، فهل سيستمر كل شيء على صورته دون تغيير؟ سيأتي يوم جديد، فهل

سيكون ذلك اليوم مشابها للأمس؟ ولماذا هو ألكسي بتروفيتش، يتشبث بالحياة؟ لا شيء، لا شيء إطلاقا يجعله يبقى هنا بمقتضى أنه مختار. هو ذاته يبتذل ذكراه، يحولها إلى شكل متقوض كئيب، حتى أثناء الحياة التي فقدت ملامحها.

تحرك ألكسي بتروفيتش معترضاً: ليس الأمر كذلك. ليس كذلك، ليس من حقه أن يقرر هو ذلك. أربع مرات دخل غرفة العمليات، أربع مرات وكأنهم كانوا يضعونه فوق الميزان الذي يقيس كميتين معلومتين، ثم صرفوه إلى حيث أتى. شملته برودة عندما قدمَ وزنه في المرة الأخيرة. كان تقريباً، في غاية الضآلة الأمر الذي جعلهم يستدعونه مرة ثانية. أخذ ينصت إلى نفسه في توتر وقد نَحى جميع الأصوات الغريبة الأخرى. بيد أنه لم يكن ينصت، وإنما كان يرى، وهو يلتفت إلى الوراء متلصصاً، كيف أضاف إلى تلك الكفة التي راحت تزحف إلى أعلى. طفرت الدموع من عيني ألكسي بتروفيتش: لا، الحياة، الحياة! مسحها بألم عذب وثقيل وهو يشعر براحة كاسحة. وضع في ذلك التضرع كل ما لديه من قوة، ثم استغرق في النوم من شدة الإعياء.

!!!!!!!!!!!!!!!!!!

اتضح أن تلك كانت ليلة تحوُّل ، وبدأ بعدها ألكسي بتروفيتش طريقه إلى الشفاء.

استيقظ في سعادة: لم تكن هناك حمى، السعال ينبئ في يسر بنهاية المرض، وراودته رغبة في الحركة . شعر في موضع الوجع بثقل وكأن

حجرا يضغط عليه ، ولكن ذلك لم يفزعه بنفس درجة الأمس: ماذا هناك؟ أمر معروف الآن. وما العمل، أمر معروف أيضاً. الرائحة الحامضة المتعفنة المنسابة من خلال الجلد، والتي أضنت ألكسي بتروفيتش، وخاصة في الصباح، لم تكن في هذه المرة كثيفة وعديمة الرحمة. خرج منه غشاء ما خانق وقذر، صارت هناك رحابة في صدره، في رأسه- في كل مكان، ولكنه تمايل عندما نهض على قدميه، لقد صفى منه المرض الكثير والكثير. اغتسل ألكسي بتروفيتش بقوة، دون إشفاق على نفسه، تحت سيل قوى بارد، وبشكل حازم تابع عمله الرائع بعد ذلك: خلع قميص المستشفى الأبيض المصنوع من القماش الخشن وجفف نفسه بمنشفة مبللة مُوَبَّرَة وأصابه الضعف. استبدل ملابسه بقميص منزلي ناعم ودافئ بمربعات بنية رفيعة، وألقى برأسه على الوسادة.

هدأت الريح، ذهبت الأهوال الليلية التي كانت تملأ الكون، ومن خلال بقع السحابات المنتفخة المتدفقة نفذ ضوء الشمس. أخذت قمم الأشجار التي تبللت أثناء الليل تواصل اهتزازها وخشخشتها، صاحت الغربان في حدة وغلظة، وابتعدت مندفعة واحدا وراء الآخر فيما وراء الغابة وهي تحوِّم من خلال النافذة في حشد جماعي منذر بالخطر. تذكر ألكسي بتروفيتش الأحداث الليلة، ولكنه تذكرها دون فزع مثل شيء ما مر في مساره الطبيعي. والذي كان شاهدا عليه بالصدفة. وفي مساره الطبيعي يعني حتما ومن كل بد أنه قضى ذلك اليوم بطوله في طريق التحسن.

أثناء المرور، أكد الطبيب أنهم لن يتعجلوا في إجراء العملية. الخياطة فعلاً سليمة وصحيحة، أما الورم الالتهابي فمن الممكن النجاح في إزالته؛ لأنه من الممكن الحصول على الدواء. يبدو أنه لا يستبعد احتمال

إجراء العملية، ولكن هذه الـ «من الممكن» كما بدا لألكسي بتروفيتش قد رنَّت بثقة، وكانت من حيث الشكل مجرد احتياط ضروري لإنسان حذر وحريص من المصادفات. ولم يكن من المفترض أن ينتبه ألكسي بتروفيتش لذلك، فواحد مثله بالذات كان مستعداً لكل شيء حتى وإن انتبه، فالجانب الجريء لديه يجعله لا يخشى. ومن الضروري أن يحين زمن ما يزول فيه سوء الحظ.

اليوم، كان لدى الطبيب ما يخبر به مرضى ذلك العنبر. بينما كان ينتف بطن جاره الوعر الخالي من الشعر مثل الصبيان، سحب رأسه بزاوية من فوق كتفه، وأملى على الممرضة شيئاً ما سجلته، ثم اعتدل وقال:

- هه، انطون إليتش، سوف نستعد. سنأخذك غدا.

- ولكن كيف.. كيف نستعد؟ - سأل الجار بصوت متعثر ورفع قدميه في حذر من فوق السرير، ثم ابتسم بشكل ممطوط.

- ستخبرك الممرضة، وخرج الطبيب كعادته دون أن يتأخر.

كانت الممرضة هي نفسها التي استقبلت نوسوف في المساء الأول، ولكنه لم يتذكرها جيدا في ضباب الحمى، والآن عرفها بما تبقى أمام عينيه، كفها الصغيرة اليابسة بأصابعها المحمرة التي تبدو وكأنها مسلوقة. بدت صغيرة بشكل عام، وشاحبة، ولكنها مع ذلك سريعة بعينين متوقدتين وكأنها تحمل خلف كتفيها الحادتين الناتئتين تحت المعطف الطفولي مالا يقل عن ستين عاماً. « متقا.. عد» كما كتب حفيد ألكسي بتروفيتش على بطاقة التهنئة: «عزيزي الجد المتقاعد».

كان صوتها الأجش مشبعاً بالتدخين. تذكر ألكسي بتروفيتش هذا

الصوت أيضاً. بدأت تتحدث مع جاره موجهة إليه التعليمات:

– حتى الغداء بدون تغيير. تناول غداءك .. العشاء ممنوع وفي المساء سوف أباشرك.

– أمن الممكن ألا أتغدى، تحسبا لأية ظروف؟ مهما كان الجار ينتظر العملية، ومهما كان يتعجل، فقد صعقه الخبر. وعندما كان يقترح مساعدته، أخذ يتزلف دون إرادة منه إلى تلك المرأة الصغيرة التي كانت تراه عاجزا عن كل شيء.

– تغَدَّ، تغَدَّ. فذلك لن يعيق.

– أهنئك، قال الجار مستغرقا في التفكير بعد خروج الممرضة.

– أنتم محظوظ.

– بعد يومين أو ثلاثة سوف أهنئك أنت أيضاً، رد ألكسي بتروفيتش بإخلاص، أتعلم بأية سعادة يعود الإنسان إلى وعيه بعد العملية. كل شيء يصير وراء الظهر، أما هو، بالرغم من أي شيء، فإلى الأمام.

– من الأفضل إجراء العملية في مرحلة الشباب.

– لو بدأت في مرحلة الشباب، لما كنت هكذا شجاعا.

أدرك الجار أنه يجبن، وأن وجهه قد أحمر وتهدل رغماً عنه، وزاغت عيناه اللتان كانتا تنظران ولا تريان شيئاً. فأخذ يشغل نفسه بهذا الأمر تارة، وبذاك تارة أخرى، يقلب في الحقيبة، يعيد وضع العلبة من الطاولة إلى حافة النافذة، ثم اضطجع، شاهد التلفزيون في تبلد، بعد ذلك نهض مرة أخرى وخرج إلى الممر، نزل إلى أسفل وأحضر الصحف، مرة ثانية لنفسه فقط، أخذ يخشخش بها ، ويخشخش ثم تركها.

– وزارتكم هذه – سأل هو – أين تقطع الغابات؟

– لا، أين تحرسها وتحافظ عليها؟

– هل حقاً يحافظون عليها عندنا؟

لم يسمع الإجابة: لأنه راح ينظر في اتجاه ما أمامه.

لم يكن هو الأول– أعطوه الحقنة، وفي بطء راح يهدأ. وأخذ وجهه المتراخي وضعه الطبيعي وصار أكثر لطفاً. ولكن العينين كانتا تنظران كما. هو الحال بغموض وحزن. كان صوته يستدعي البكاء. لم يكن ذلك هدوءاً، وإنما عملية كبح، تلك التي تتدنى معها درجة الإحساس، ويصبح التراخي والغموض هما اللذان يشكلان خطوط الأحداث الجارية التي كانت منذ نصف ساعة، فقط، مضت حادة وساخنة. العالم كله يسبح في هذه الحالة بدون إحساس وبصورة ثابتة من أجل إيجاد وضع أمين ومضمون. حتى الجار راح يشخر دون أن يدري أو يشعر، وفي أنين مبحوح، ولكن لفترة غير طويلة وبدون صوت عال.

هب مشعثا، ذاهلاً، وكأنه لا يعرف أين هو، وبينما أخذ يدور بعينيه على الجدران وساعته في معصمه، سأل ألكسي بتروفيتش .

– كم الساعة؟

– قريبا ستصير الثانية. الغداء على الأبواب. أوحى إليه ألكسي بتروفيتش.

– يجب أن أتغدى، وبينما شرع في تجهيز نفسه بسرعة، راح يبحث عن القدح البلاستيكي المزركش بالورد، والذي كان موضع حسد ألكسي بتروفيتش؛ لأن قدحه المعدني كان يلسعه.

تبادلا الحديث بعد الغداء. ولكن ذلك الحديث جاء على نحو غير مستحب - ليس في مكانه ولا في زمانه، واحد لم يستطع كبح مشاعر العافية التي عادت، والثاني عليه أن يجتاز محنة أليمة وخطيرة. واحد محطم وممزق، منهك ومضعضع ، خرج منتصراً، والثاني سار لتوه إلى تقارب حاسم، وأخذ يتشنج ويحرك فمه بشفتين مطبقتين حتى أن عظام وجنتيه كانت تطقطق، ومع ذلك واصل التحديق في التلفزيون، ومن التلفزيون بدأ كل شيء.

- هلا استرحت منه- لم يتماسك ألكسي بتروفيتش وهو في سريره- وأرحتني أيضاً؟

- هكذا، تفضل- صاح به الجار فجأة- نهض في تأهب وأغلق التلفزيون. حينئذ فقط ومن الضروري، يجب أن يكون قد رأى نفسه في ذلك المشهد في حالة مؤسفة. فسأل بصورة غير مترابطة: ولكن ما هذا.. لماذا أنت ضده بهذا الشكل؟

- بروباجندا عدائية كما تقول. تذكر ألكسي بتروفيتش في لذة.

- أنا لم أقل شيئاً من هذا القبيل.

- قلت عن الصحف. وأنا عنه. عن خيال المآتة الأعور هذا من وجهة نظري طبعاً.

- في أي شيء لا يعجبك هو ؟

- هذا أمر شرحه يطول ومع ذلك فأنت تعرف، صحفي أيضاً لا تعجبك. فحتى قبل أن تتناولها في يدك، تتقزز وتتقـــزز وأنا أيضاً عنيد.

- معنى ذلك أنك تتحسر على ما مضى؟ هكذا، وهذه الـ«هكذا» كانت لديه مثل النقطة لا أكثر. ولكن يمكن تصور أنه في زمن ما عندما كان الجار في السلطة، كانت تتردد في صلابة وقوة معمقة ما قبلها بتلويحة حازمة من اليد.

انتهى الحديث، وجلس ألكسي بتروفيتش بصورة أكثر راحة حيث استدار على جانبه مثبتا الوسادة تحت كوعه.

- أتحسر - وافق هو- ولكن ليس كذلك، ليس بالضرورة كما تتصور. وإذا كنت تود أن تعرف، فأنا لم أخرج من الماضي بأي شيء. كل ما خرجت به من الماضي يمكن جمعه في حقيبة تعلق على الظهر، وفي الحاضر أيضا. أنا لم أكن في صفوف الحزب.

- وذلك في الوزارة ؟ لم يصدق الجار.

- نعم، لقد عملت بالوزارة لمدة ثلاث سنوات. ذهبت إلى هناك بالصدفة. عينوا مدير المعهد وزيراً، فجَرَّني معه إلى الإدارة وتلك الوزارة... كانت هامة بالنسبة لنا. وهأنت أيضاً لا تعرف أي شيء، يقطعون الأشجار أم يحافظون عليها، أليس كل ذلك يكشف عن حالة الوزارة نفسها؟

- كانت الامتيازات متساوية لكل الوزارات، كان من الواضح أن الجار يواصل كلامه في إجهاد حيث رقد وثنى قدمه اليسرى وقذف عليها باليمنى، وأخذ يهزها بعصبية وهو ينظر نحو الباب، كان هناك شيء ما يجرى.

وافق ألكس بتروفيتش مستطردًا: هذا المستشفى، وإن كان من الدرجة الثالثة، أنا فيه لأول مرة في حين أنني والحق يقال لا أملك الحق في دخوله.

نعم، المستشفى، المصيف. ولكن ما ضرورة المصيف لي «لإنسان

يعمل بزراعة الغابات؟ لم أذهب إلى هناك أبدا، ولو حتى لمرة واحد. أما السيارة فقد كانت لي. أتيت بها إلى هناك. والمنصب لم يكن هاماً، ولا يمكن مقارنته بمنصبك فأنت كنت أميراً يا أنطون إليتش، الشخص الأول في مؤسسة ضخمة للبناء. هناك تسبح الامتيازات، وتلك الأشياء التي تسمى بالتسهيلات، ولا داعي للركض وراءها أيضا لن أتحدث عنك، فأنا لا أعرف. ولكن ماذا يعني رئيس مؤسسة؟ فهذا ما أعرفه جيداً.

كان الجار صامتا. أخذ ألكسي بتروفيتش نفسه:

- لابد أنك كنت في الحزب يا أنطون إليتش؟

- بالطبع كنت. أنت تعرف كيف كان من الممكن ألا أكون هناك؟

- وأيضاً ليس مجرد عضو حزب. وإنما عضو لجنة إقليمية.

كان من الممكن للجار ألا يرد. لم يكن هناك غير ذلك.

- هل حاربت؟

- ثلاث سنوات. لديَّ جرح خطير- أجاب الجار في صلابة- ما عساك، هل تجري معي تحقيقاً؟

دخلت الممرضة ، وضعت حوضا مطليا بالمينا وفيه الحقن على منضدة ألكسي بتروفيتش، وأمرت الاثنين أن يستديرا بجسديهما. ونال هذا وذاك نصيبه. ولايسعك إلا أن تتعذب كيف يتقنون هنا بحذق غرز الإبر في لمسة واحدة غير مؤلمة، وفي اللمسة الثانية قليلة الاكتراث يمسحون مكان اللسعة بالكحول وهم يقبضون في نفس الوقت على يد المريض ويديرونها واضعين إياها على القطنة نقطة الدم الوحيدة.

- سأواصل يا أنطون إليتش، بعد إذنك سأكمل كلامي، قال ألكسي بتروفيتش بعد انصراف الممرضة، وفي نفس الوقت استدار كل منهما نحو الآخر، ماذا نستنتج: أنت حاربت، وكان لديك منصب كبير ولم تكن غريبا عن الزمرة الحزبية المحلية، ساهمت بجهود غير قليلة في النظام القديم... كيف حدث وصرت تكرهه إلى هذا الحد، وكأنك- لست أنت نفسك، فما هذا، هل ولد شيء جديد؟

- قاطعه الجار بشكل حازم.

- لقد حاربت من أجل روسيا، وبنيت روسيا، وليس النظام القديم.

- من أجل روسيا- وافق ألكسي بتروفيتش، وزفر بصوت مسموع حاربت من أجلها، نعم.. ولكن لماذا إذن عندما قام هؤلاء الشياطين من المؤسسات العلمية- أشار ألكسي بتروفيتش، وهو ينحني، بذراعه نحو التلفزيون- بالاستيلاء على الاجتماعات التي يكثر فيها الكلام الفارغ، وأخذوا يسخرون منكم.. نعم. ومن ضمن ما يسخرون منكم أنتم أيضاً.. أخذوا يؤكدون أن التضحية كانت عبثا وبدون فائدة، وأن النصر لم يكن ضرورياً. لماذا استمعتم مثل الأطفال، وصدقتم؟ دافعتم عن روسيا...

- وأنا الآن أيضاً أدافع عنها.

- الله معكم! لو كانوا أقنعوكم على الجبهة بتوجيه السلاح.. حيث روسيا.. هل كنتم تصدقون؟ على الرغم من - ماذا بي؟! وهذا أيضاً قد حدث. لقد حدث كل شيء. أما المرعب فهو أننا لا نتعلم من أي شيء. ولكن إذا كنتم لم توجهوا السلاح هناك حيث روسيا، فذلك لأنكم من الضروري كنتم تعرفون أين هي ومع ذلك فقد وجههوه هم أنفسهم- ومرة

أخرى قام بهجمة في اتجاه التلفزيون- وها هي، من كل البطاريات تلطخ روسيا بالوساخات، ونقيم فيها الأنظمة التي لم يرها أحد في أي مكان أبدا، ونرتدي جلداً غريباً، من المعقول ألا يكون كل ذلك قد طعنك في قلبك ولو مرة واحدة، لماذا، ولأي سبب يغرقون روسيا هكذا بالشتائم؟ وفي روسيا نفسها.. ألست روسيًا يا أنطون إليتش؟

- أليس ذلك واضحا، أم ماذ؟ - قال الجار في برود ونفور وهو ينظر إلى ألكسي بتروفيتش مقطبا.

- حتى الآن هذا واضح فلدينا على كل حال صفاتنا المميزة ولكنهم في القريب العاجل سوف يمسحون بها الأرض. ولكن قولوا لي، أي روس نحن وأنتم، إذا سمحنا بأن يدوخونا هكذا؟ يجب أن تكون لدينا بديهة إذا لم يكن هناك شيء آخر. روسيا بالنسبة لك في جانب وبالنسبة لي في جانب آخر. لا، ليس هناك حيثما كنا نحن وأنتم أثناء الشيوعية، كما أنها ليست هناك أيضاً حيثما تنظرون، ليست هناك إطلاقاً، يمكن الافتراض أني على خطأ، ولكن انظروا، إننا همجيون، متوحشون، فاجرون، سكيرون، عيّابون... خلطة متكاملة.. تنابلة، قطيع خانع، نقبل على الأيقونة بشكل لا يختلف عن تعاملنا مع الفأس. يجب أن ننتقل إلى العالم المتحضر لكي ننظم أنفسنا، فانظروا كيف يتحضرون، سكيرون- يغرقوننا بالفودكا الرخيصة. فاجرون-وكل العار، كل مجون البشر من كل أنحاء العالم، وكل التشوهات المنافية للعقل- كلها موجهة إلى هنا، همجيون- نقول بحرية يا أي قاتل، اغتصب، انهب ، اسرق، اقتل بدون عائق أو رادع، ولتستحوذ المافيا والفساد على ثروة الدولة، اتحدا معاً، اقبضا على زمام السلطة، تنابلة، حتى الخبز والسمن لا يأخذونهما

من فلاحيهم، وإنما يجلبانهما من وراء المحيط، وقحون، الشتائم تملأ فم أي مربٍّ. ألا يبدو لكم؟.. هه.. إن وسيلة التربية هذه غير مناسبة على الإطلاق.. إطلاقا غير مناسبة؟! اقتصرت الحرية فقط على ذلك. كيف يصير أن ينهب البلد بشكل نهائي وبدون ضمير وبلا خجل، ويصنع منا نحن وأنتم بهلوانات، أما نحن فقد فغرنا أفواهنا. وسوف يقدمون إلينا روسيا الحقيقية ! لا ياأنطون اليتش، هذه ليست روسيا معاذ الله!

تنهد ألكسي بتروفيتش، وسكت. تنفس الجار أيضاً في صعوبة ونظر إليه بعداء. وفجأة على طريقة الصبيان تماماً: نهض بصورة استعراضية وفتح التلفزيون.

- الأخبار - أعلن هو- اعذرني، لا يمكنني عدم سماعها.

- طبعا، طبعا- ليس بدون دهشة وافق الكسي بتروفيتش، وبالمثل استدار في صورة استعراضية نحو الحائط. لكنه لم يهدأ. اشتعل صدره بألم محتدم من جراء الغضب، ومن الضياع العظيم الشامل الكائن حيث الوجوم والكآبة، الضياع البادي على كل وجه بشري، والموجود في كل كلمة. وربما أنه لم يكمل حديثه، فقد انتظر ريثما ينهي المذيع، ذو الوجه والتسريحة اللذين يشبهان دمية «باربي» قرقعة صوته الميكانيكية السريعة.

- أتعرفون، ماهو الشيء الأخير غير المفهوم؟ انتهز فترة صمت بعد الأخبار لكي يسترسل. مفهوم، بالطبع مفهوم، ولكنه مفهوم إلى درجة الغموض. العقل يأبى أن يتقبله. فنفس نافخي الأبواق هؤلاء هم ذاتهم استغفلونا منذ عشر سنوات مضت، ومازالوا يستغفلوننا إلى الآن أيضاً.

أما نحن فقد أطلنا آذاننا. وإذا كنتم متفقين معهم اليوم، فهذا يعني أنه يجب الاعتراف بأنهم في الأمس كانوا يستغفلوننا. لأنهم كانوا يتكلمون على العكس تماماً. وإذا كانوا قد استغفلونا اليوم أيضا وهذه هي الفئة التي نشأت وترعرعت على أكتافنا. فتارة الرأسمالية المرعبة، وتارة أخرى الجنة. ولو كانوا يستطيعون لغيروا حركة الشمس أيضاً كي تشرق من الغرب. ولكان علينا نحن، المغفلين، أن نسير بظهورنا. أتعرف، كيف أدير مقود السيارة؟ لو أن تلك العصابة راحت تغني في صوت واحد بأن منفعة روسيا هناك- فذلك يعني أن المنفعة من طريق آخر تماماً. وهذا ما سيظهر بعد ذلك، التوجه الصائب ليس بحاجة إلى بوصلة ولا إلى سمت.

- وبالتالي فأنتم وحدكم بهذا القدر أذكياء، أما الآخرون فمغفلون!

صاح الجار وهو ينهض بصورة حاسمة:

- أهدءوا، يا ألكسي بتروفيتش، كفاني. أنا ربما، مغفل، ولكن الأمر سيان بالنسبة لي الآن.

تلعثم ألكسي بتروفيتش: ماذا به في واقع الأمر؟ فهو ليس في حفلة خطابية.. والعين ليست ضرورية لرؤية أن ذلك هو الذي لا يؤلم جاره الآن. قدم اعتذاره، فلم يرد الجار. وفي نفس تلك اللحظة بالضبط انفتح الباب ودخلت زوجة ألكسي بتروفيتش، وبمجرد أن دخلت من الباب حتى أخذت تبتسم وتتمعن في ألكسي بتروفيتش، ثم ألقت التحية، ووضعت الحقيبة الثقيلة على الأرض بمحاذاة السرير، وغنت:

- كم هو رائع عندكم! بالضبط كما في غابة!

- هنا أجمل مكان لكي يمرض الإنسان - أجابها ألكسي بتروفيتش بنفس الإيقاع.

!!!!!!!!!!!!!!!!!

حملوا الجار في الصباح، وصار المكان هادئاً ورحيباً. صعد في صعوبة وضجيج إلى نقالة رفيعة متحركة غير عالية. استغرق ذلك فترة طويلة، وكان يتحدث في عصبية. «لو أمكن من قدمي، من قدمي- أخذ يردد - إلى هناك، وبقدمي، لماذا تتعبون أنفسكم؟» وقفت ممرضتان من غرفة العمليات على طرفي النقالة تنتظران، وهما في معطفين منشيين وطاقيتين .. شابتان جميلتان تتطلعان في جدية وصرامة بوجهي أيقونتين بدا من نصوعهما أنهما لمبشرين سماويين. وعندما وُجه الأمر إلى الجار بخلع ملابسه، حين صار عارياً تماماً وغطوه بالملاءة، هدأ على الفور مثل الذبيحة. فقط، راح يشد عروق رقبته ويحرك رأسه الأشيب الكبير على الجانبين. وصادف أن كانت النقالة المتحركة خربة ومترجرجة، فظل الأنين والصرير الحزين المتوتر مسموعين لفترة طويلة من جهة اليمين حيث حملوها.

جاءت ممرضته، تاتيانا فاسيليفنا، أخذت تجمع الأغطية والفراش من سرير الجار وهي تزفر، ثم دفعت التلفزيون في الركن. اندهش ألكسي بتروفيتش:

- كيف خمنت، أنني لست على وفاق معه؟

- ولماذا يجب التخمين؟ - أجابت هي- إننا نرى. لستم أنتم وحدكم، فهذا هو أول أسباب الخلافات عندنا. واحد يريد البرنامج الأول والثاني

يريد الرابع.. أو واحد ما لا يمكنك تعتعته من مكانه.. صدقوني، كانت هناك حادثة في العام الماضي: مات من أجل التلفزيون. والثاني لا يشاهد من حيث المبدأ، فيطلب نقله إلى عنبر بدون تلفزيون.

– ولكن هل توجد هذه العنابر حقاً– بدون تلفزيون يجمع الجميع.

– لا. ولكن هناك تلفزيونات لا تعمل. يظلون وراءها من الصباح حتى المساء– بدون جدوى. أما «الفدائيون» فبالطبع...

– وهذا أيضاً، ماذا يعني؟

– يعطلونه عن عمد. لا يعمل– وفجأة يبدأ البث– كانت تتحدث بصوت رخيم، خفيف وغير عميق– «فدائي» هذا يعني أنه يذهب، ويغرز شيئاً ما هناك في المكان. وقد نسي أحدهم أن يغرزه هناك، كان حزيناً للغاية. رحل وظل التلفزيون لا يعمل كما كان عليه في السابق. جاء واحد جديد في مكانه، وراح يحاول معه لكي يعمل ، طلب مُصَلّحا. ولكن ما شأن المصلّح هنا– أنا أعرف أن القضية ليست قضية مصلّح. وإذا بي أتصل بذاك، وهو شخص هام في عمله وأقول: «أنت يا سيرجي سيرجييتش، ألم تنس معك أية أنبوبة صغيرة؟»– ضحكت الممرضة متذكرة كيف أجاب «الفدائي» الذي انكشف أمره، «أوه– يقول – تاتيانا فاسيليفنا، لقد نسيت في الحقيقة. كيف عرفت؟ هذه الأنبوبة في الدولاب عل الرف العلوي ملفوفة في قطنة هناك. لا تضعوا السماعة، انظروا، هناك أم لا وإن لم تكن فسوف أبعث بغيرها. ما عساكم.. إنها هناك طبعاً. كانت صغيرة جداً جداً – أشارت الممرضة، إلى إصبعها، كم كانت صغيرة– مثل ذلك الشيء أوقعنا في حيرة وارتباك.

– إنها مقاومة. قال ألكسي بتروفيتش في تلقين وهو يبتسم أيضاً بنفس التوجس الذي نظرت به الممرضة إلى التلفزيون الجاثم في إهمال.

– نعم، نعم، مقاومة، ولكنها هكذا صغيرة...

بعد العملية احتجزوا الجار يومين في غرفة الإنعاش. ظلت تلك الأيام على كل حال معتمة، بسماء متراخية متبلدة مثيرة للكآبة. وقف ألكسي بتروفيتش طويلاً عند النافذة، وأخذ ينظر كيف تدخل القامات البشرية راكضة على الطريق الخرساني إلى الغابة وتخرج منها برؤوس عارية وعباءات على الأكتاف. وتحت النافذة، عند مدخل الخدمة راحت الأقدام تضرب الأرض بصوت عال وهي تُسقِط الأوراق المعلقة. امرأتان ترتديان ملابس عمل رسمية تحت ملابس أخرى، ضخمتان مثل كل عمال الطرق، تجمعان فروع الأشجار المتساقطة التي ألقت بها الرياح، وتتحدثان بصوت عال وهما تسبان أحداً ما باسم أدينتسوف الذي يكذب ويسرق.. «الجميع يكذبون ويسرقون!» – من وقت إلى آخر تقومان بعملية تعميم وهما واقفتان في مواجهة بعضهما البعض في وضع مثل الكهنة تشوحان بأيديهما، وبعد ذلك عادتا مرة أخرى إلى أدينتسوف. واحدة في حذاء رياضي بقدميها الكبيرتين مرتدية على رأسها شيئاً ما متجمداً يشبه الطاقية العسكرية، وكانت جهورية جداً بصوت بوق متسلط.

– يقول لي– رددت بصوت باص على الطريقة الأوكرانية – اذهبي للعمل في الكرملين إذا كان العمل هنا لا يعجبك.

– أي جهبذ هو– ردت الثانية التي تتحدث وهي تترنم.

– في الكرملين!– قلتُ– في الكرملين! في الكرملين! « لماذا قال هو – لا يعجبك الكرملين؟ ستكونين هناك فروة محترمة تقي من الثلج، وستكنسين هناك بمقشة. أنت امرأة من أصل شعبي، وسوف يدفعون لك أجرة إضافية من أجل الجسد الشعبي».

– معقول! ولكن أين تعلم ذلك؟! – قالت الثانية مندهشة– هو نفسه مثل المخاط تقطفينه بلمسة واحدة، ويقل حياؤه على الجسد الشعبي. لو أراه، لأمسكت به على طريقتي، ولاعبته، حتى يعرف حقا ما هو الجسد الشعبي، ويكون حريصاً معه.

من فوق الغابة تناهت عن بعد دقات القطار المألوفة تارة، وتارة أخرى رنين الأجراس الرقيق الخافت، وانتصب الهدوء الدفين الممتلئ للمدينة الكبيرة. تلاشى الضوء البني سريعاً، واضطرمت نيران مبكرة وهي ترتعش مثل نجيمات صباحية، وراحت تتفرق في ضفائر طويلة متلألئة في خفوت حتى تحولت إلى هالة واحدة متسعة، وكأنه بالضبط قد اشتعلت الأرض عند الأفق. أحزنه إحساس أنه يرى ويسمع وكأنه في قفص، ولكن الأمر الأكثر إثارة للحزن أيضاً كان التفكير في أنه مضطر بنفس تلك الكآبة المستعصية لأن ينظر في اتجاه مجهول من نافذة شقته، ويتيقن في كل مرة أنه لا شيء أكثر من ذلك يمكن انتظاره من الحياة. وفي كل مدينة كبيرة، تُذَكّرك بأطلال بناية عملاقة فُتِحَت فيها منافذ وثقوب للسير والمرور على عجل وكيفما اتفق، تنظر من النافذة. يعني أنك تنظر في اللانهاية . وفقط، عندما تبتعد في وسط الأصوات والوجوه القريبة المحببة، الحميمة، يمكنك أن تهدأ، ومرة أخرى تقول لنفسك إن الشيء الرئيس الآن أن تنهي حياتك بكرامة الآن، وقد انفجر من أعماق الحياة كل الشر الذي تراكم

فيها على مر مئات السنين، وانقض سيولا عل كل إنسان، لاسيما وأنه من الضروري إنقاذ النفس منه مهما كلف الأمر، والبرهنة للعالم كله ولنفسك، بأنه ليس كل شيء يركع أمام الإرادة الشريرة التي انتصرت.

في الممر الطويل تسكع مرضى حزام الحوض ذهابا وإيابا محنيين، يخطون في حرص لكي لايؤذوا أو يرجّوا أي شيء في أنفسهم، بأكياس الأثيلين على أفخادهم تطل من تحت معاطفهم، وتهتز وتبقبق أثناء سيرهم. خرج إليهم ألكسي بتروفيتش واهنا ضعيفا أيضا وقد انحنى وأخذ يحك الأرض مثلهم بقدميه، ويتحدث أيضاً بصوت خافت. في مثل هذه المستشفيات كل الموكب يتكون فقط من العجائز وحدهم. هنا كان الشباب كثيرين، يرتدون ملابس رياضية فاتحة يتحدثون بصوت أعلى وأكثر حرية، ولكنهم أيضاً بوجوه متجمدة من المرض. ولاحظ ألكسي بتروفيتش شيئاً آخر: قبل العملية كانوا يلتزمون بمجموعتهم، وبعد العملية بدوا أكثر مرحا، وبدءوا المزاح مع بعضهم البعض في مجموعتهم الجديدة. كان الأطباء والممرضات يركضون متعجلين باستمرار، التليفون يطنطن تارة وفي وضع معين، وتارة في وضع آخر. يدفعون نقالات متحركة بأجراس مجلجلة يحملون عل أيديهم الممدودة قطّارات على حوامل عالية، تومض على أبواب العنابر لمبات استدعاء الممرضات، وتَحَرّك، وتَحَرّك صف محني من سبعة أو ثمانية أجساد في محاذاة الحائط يحفون أقدامهم وكأنهم في موكب طقوسي، ومن خلفهم صف آخر...

حقنوا ألكسي بتروفيتش بلا رحمة، ولكن الثقل الحارق تحت الخياطة لم يتلاش، خاصة ذلك الثقل الذي كان يعلن عن نفسه بمجرد أن ينهض على قدميه، بيد أنهم عرضوا له صور الأشعة وعليها بقعة قاتمة للورم الالتهابي وقد راح يضعف ويختفي تدريجيا. وأخذ يصدق أكثر فأكثر أنه سيجتاز الأمر على الرغم من أن الطبيب، كسابق عهده كان حذرا في تقديراته. ومع ذلك ففي كل منا ذلك الإحساس العضوي- الداخلي- الذي نشّط ألكسي بتروفيتش وجعله أكثر حركة وتدفقاً.

في ذلك اليوم الذي لم ينتظر فيه حتى يأتي المصعد، اكتشف درجا واسعاً في الممر بدرابزين نحاسي لامع مصقول، وقد غُطي المعدن بمشغولات الدانتيلا المصبوغة باللون الأسود، بالضبط مثل مدخل رسمي فاخر في صالة لحفلات الرقص. وكأنه عثر على مخرج تم إخفاؤه. هكذا داعبه الأمل. وبعدما وقف على الدرج، وحشد قوته، نزل إلى المكتبة وتناول طبعة قديمة، من قبل الثورة، لديستويفسكي عن الأمير ميشكين. حضرت الزوجة، فودعها من هذا الدرج. أعجبت الزوجة بالنوافذ الواسعة بطول الحائط، والمطلة على الساحات. كانت تحب الضوء الكثير، أما ألكسي بتروفيتش فقد اندهش لأنه لم ينتبه إلى النوافذ. وعموماً فقد كان انتباهه محدوداً بخصوص ذلك الأمر.

ظهرت تاتيانا فاسيليفنا مرة أخرى ليس في دورها، إذ يبدو أنها ناوبت بدلاً عن أحد ما، وحكت كيف أنهم يطردون حفيدتها، في الصف الثالث من مدرستها الأصلية.

- عملوا من المدرسة، مدرسة للأغنياء- كسرت تاتيانا فاسيليفنا عنق الأمبولة الزجاجي الرفيع في طقطقة وسحبت السائل في الحقنة- عملوها،

وراحوا يطردون الغرباء. ولكن أي غرباء نحن؟ لقد كانت المدرسة على الدوام تابعة لمنطقتنا وابنتي أيضاً درست هناك. أما هم فمن كل أنحاء المدينة يتوافدون إلى هناك في سيارات الليموزين. أوه، وأية ليموزينات، يا ألكسي بتروفيتش! في الشارع، في خضم السيل المتدفق لا يمكن الانتباه إليها، ولكن عندما تتجمع مع بعضها، معرض! معرض!... قررت في خفوت وهي تنحني على ألكسي بتروفيتش منهية عملها في لحظة راحة ، وحتى منذ الخريف أعلنوا أن نتاشا متخلفة عقلياً. أي أنها هي المتخلفة عقلياً! إنها فتاة في غاية الذكاء. رفضت الأم إخراجها من المدرسة في الخريف. أما هم ففي حاجة إلى أماكن لأعداد صغيرة لكي يدرسوا أفضل. وبالتالي فقد راحوا يتفننون... بالأمس اجتماع لأولياء الأمور، تذهب ابنتي فيرا، ومرة أخرى ابنتكم بليدة، وسيبقى لدينا المتطورون ذهنيا فقط. ويعلنون: بداية من سبتمبر الدراسة ستكون مقابل نقود. وبالعملة الصعبة. وهكذا، يا ألكسي بتروفيتش: العملة الصعبة- أنهت كلامها في تشديد حازم وعاجز بينما أسقطت الحقنة المستعملة في الحوض بضجيج - أما نحن، الناس الذين ليس لدينا عملة صعبة، فعلينا أن نحتمل كل شيء ممن لديهم العملة الصعبة.

!!!!!!!!!!!!!!!!

جاءوا بالجار قبل الغداء. وبينما أخذ يترنح بعد إنزاله من فوق النقالة وقد أسندته ممرضتان حتى السرير، كان من الصعب عدم ملاحظة أنه خلال يومين قد انكمش جسده، مثل الوليد تماماً. وفقط رأسه الكبير فوق جسده القصير المتهدل والذي كان يعطيه شكل فرخ الضفدع، هو الذي ذكّر بامتلائه السابق. أخذ نَفَسَه في فراشه ونظر شذرا إلى ألكسي

بتروفيتش بعينين صفراوين.

- كيف أيها الجار، مازلنا أحياء؟- سأل بصوت خائر مرتعش، وحرك يده إلى أسفل، نحو الجرح.

- أحياء.. وأين المفر؟ كيف كانت العملية؟

- كيف! يربطون الأيدي والأرجل، يشحذون السكين، ويبقرون. وعليك أن تحتمل إذا كنت تريد أن تعيش، اقتلعوا زلطة، أنظر هكذا- مدح نفسه مشيراً بيده إلى حجمها- أكبر من بيضة الحمامة. وقد وعد الجراح إهداءها إليّ للذكرى.

كانت تُسمَع من خلال الألم، في صوته رنة رضاء وكبرياء: لقد احتمل، واجتاز مثل هذا الطريق الوعرة!

استيقظ ألكسي بتروفيتش في الليل على قعقعة المقعد الذي سقط. انحنت القامة البيضاء الجالسة على السرير بشدة ثم انتصبت ثانية، كانت تفتش عن شيء ما على الأرض. وبعد ذلك نهضت واقفة وخطت خطوة في صعوبة. ضغط ألكسي بتروفيتش بسرعة على زر تحت يده اليمنى، سمع كيف رن الجرس بإزعاج في الممر خلف الباب، ثم نهض.

دخلت الممرضة تاركة الباب مواربا، وعندما دققت النظر، رأت قامتين واقفتين في مواجهة بعضهما البعض. نقرت مفتاح الكهرباء، ثم أغلقت الباب وانقضت على ألكسي بتروفيتش وهي بين اليقظة والنوم فاردة يدها لكي تجلسه. وبمجرد أن انتهت من ألكسي بتروفيتش حتى هزت رأسها في دفعة واحدة تعبر عن حالة صحو لحظية. بعد ذلك استدارت متجهة صوب الجار. كانت هي تلك الفتاة الصغيرة، الشابة، قوية الشكيمة التي

كانت تفعل كل شيء في عجلة. أما كيف كوَّمت الجار بيديها الطفلتين، ومن أين جاءت بتلك القوة لكي تُجْلِس، في هدوء، ذلك المقاوم الذي يحاول الوقوف، وتضمه ثم تُدخِل قدميه بحرص في الفراش! لم تكن هناك سوى الدهشة. ولم تكن مساعدة ألكسي بتروفيتش ضرورية لها.

- ارقد. ارقد، يا صغير - رددت وهي ما تزال تمسك بالجار في قوة - تسيب وانحلال. غير مسموح لك بالنهوض. فماذا نفعل معك إذا حدث شيء؟

تمتم الجار بشيء ما غير مفهوم، وهدأ.

- ماذا به - ألا يتذكر نفسه؟ - سأل ألكسي بتروفيتش.

- إنها بقايا المخدر. فهو يمكن أن يؤثر لفترة طويلة - أوضحت الممرضة بكلمات سريعة مقتضبة وهي تلملم شعرها القصير المصبوغ بلون ما ضارب إلى الصفرة الفاقعة، ثم وضعت عليه الطاقية - ألا تعارض إذا تركتُ الباب مواربا؟ أخشى ألا يكون هذا كل شيء!

بالفعل لم يكن ذلك كل شيء. هدأ الجار لفترة غير طويلة وهو يتنفس بصوت مسموع ويطلق شخيراً مطنطنا. وبعد ذلك رفع رأسه وأخذت يداه تشوّحان ثم نزلت قدماه في صعوبة. ضغط ألكسي بتروفيتش ثلاث مرات دفعة واحدة على الجرس، دخلت الممرضة راكضة وأرقدته بدون جهد يذكر. رددت: «إلى أين، أيها المريض بالروبصة؟ ألا تريد العودة إلى مكانك؟»- ضغطت المريض في الفراش، ثم تسحبت في هدوء إلى الخارج.

انتهت كل تلك الجلبة بالحقنة التي سَكَّنَتْ الجار حتى وقت متأخر من الصباح. لم ينم ألكسي بتروفيتش بعد ذلك. راح يستمع كيف يستيقظ ذلك المكان الضخم متعدد الطوابق والأقفاص، المليء حتى النهاية بخزانات الأمراض، والمسمى بالمستشفى: بصفقة خافتة اصطك باب المدخل الرسمي، انزلق المصعد في مجراه، اندفعت الكابينة بنقرات في أحد الطوابق، طن مقبض دلو، تأوه أحد ما في خفوت... وببصر ما ممتاز رأى كيف تخرج من المصعد شابة، فتاة صبية للغاية، إلى الدرج المنبسط المزخرف بالقرميد الذهبي، ترتدي معطفا قصيرا للتنزه، بساقين طويلتين جميلتين، وكيف تدخل إلى غرفة الممرضات وتبدأ في ارتداء الأبيض ، وفي خمس دقائق تتحول إلى ملاك، ولكن شعرها الأسود مازال مفروداً ومنسدلاً كالسابق، وحركاتها متمهلة خافتة. تأتي مبكراً لكي تشرب القهوة قبل بدء نوبتها، تنتظر حتى يبدأ الإبريق الكهربائي الصغير، هدية أحد المرضى السعداء، في الغليان بيده الناتئة في نصف دائرة.. وفي نهاية الممر تبدأ امرأة ثقيلة مسنة، عجوز تماماً، في جر الممسحة على مشمع الأرضية السميك الذي يغطي الأرض تماماً ويكاد يبدو مثل الباركيه. كانت تعصر الخرقة فوق الدلو، ثم تلقي بها مطوحة إياها أمامها. وجهها متورم، ممتلئ، وأسنانها متآكلة، وجونلتها الزرقاء القاتمة، البالية ترتفع بفعل حركاتها الواسعة لتكشف من تحت الجوارب البشعة الممسوكة من أعلى بقطع من المطاط عن جسد أبيض مترهل مفرط في الانتفاخات والنتوءات التي تترجرج إلى الأمام وإلى الخلف أثناء العمل. المرأة تعيش بالقرب من المستشفى، تأتي مبكراً. وبعد ذلك تشرب هي الأخرى كوبا من الشاي الساخن الذي يكون قد تم تسخينه في المطعم حين تنتهي من

العمل، وبمجرد أن تبدأ ارتشافه تظل ترقب في لامبالاة كيف يوحلون الممر الذي غسلته للتو، وسوف يكون ألكسي بتروفيتش من ضمنهم، من ضمن أولئك الذين لن ينتبهوا إلى مجهودها.

اعتاد ألكسي بتروفيتش طوال يومين على الوحدة، أما الجار العائد إلى العنبر فقد بدأ يحتل مكاناً أكبر مما سبق. ولكن حالته كانت مؤسفة، حتى وهو نائم يشخر ويئن في آن واحد بصوت مضاعف مستلقيا على ظهره متراخياً ومتغضنا على نحو ما والألم ظاهر على وجهه الذي غطاه الشيب. ومع ذلك لم يتذكر أي شيء من مشاكساته وألاعيبه الليلية. وعندما قال ألكسي بتروفيتش له، حينما قام لأخذ الحقنة، دون أن يتطرق إلى التفاصيل بأنه وقف على قدميه في الليل، صرخ الثاني مفزوعاً في الحال:

– إنني ممنوع من ذلك!

– هذه هي المشكلة، إن ذلك ممنوع. فكيف حالكم؟

– ألم أضر بنفسي؟– سأل الجار دون أن يجيب.

– اعتقد أن الأمور مرت بسلام. ولو كان الوضع غير ذلك لاستيقظت منذ زمن.

راح ألكسي بتروفيتش يقرأ الصحف التي أصبح الآن ينزل من أجلها بنفسه. وعندما بدأ القراءة لسعه الألم. ألم آخر ليس مادياً، ولفحته رياح حارقة طوقت صدره. استلقى إلى الوراء على الوسادة مشتعلاً، وأخذ يعذب نفسه: كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ كيف يمكن أن يحدث ويستسلموا لأنجس طُعْم ثم يشرعون في التخريب، والتدمير... ولمن استسلموا؟! يا إلهي، لنستمع فقط إليهم، لننظر فقط إليهم! في أية قرية لم يكونوا يرون في

الكذاب إنساناً، كانت لديهم عيون وآذان لكي يقوموا. ولكن حينما تجتمع فرقة من الكذابين، الواحد منهم أوقح من الثاني، وأكثر انتهازية ومطامع منه، فأية وسوسة شيطانية هذه؟! وبينما راحت المصيبة تحرقه، أخذت تطن في رأسه نغمة مبهجة:

«رائع يا إخوان رائع، رائع يا إخوان أن نحيا، فمع رئيس عصابتنا لن نأسف أبدا!».

- ماذا يكتبون؟- سأل الجار ناظراً في التماس- وفجأة استجمع ألكسي بتروفيتش شجاعته وحمل إليه الصحيفة. تصنع ألكسي بتروفيتش عدم الفهم، وأجاب في غضب:

- إنهم يقضون على روسيا، يحطمونها تماما!

- من الضروري المرور بفترة صعبة..

- وإلى أين نخرج- استرسل ألكسي بتروفيتش- إلى الصحراء؟ إلى خراب شامل وممتد؟ إنهم ليسوا بنائين، إنهم لا يقدرون على البناء. لديهم فقط تلك الحرفة، تلك العبقرية. التدمير! نعم- تذكر فجأة- على كل حال كنتَ بناء. ويمكنك أن تميّز:

- إما يبنون الحائط بالطوب، وإما يدقون فيها الحديد الزهر!

- أنا بنّاء وأعرف، وبدون الحديد الزهر لا يمكن اجتياز السلسلة الصفرية.

- هذا صحيح، السلسلة الصفرية. لم يتحركوا أبعد من السلسلة الصفرية.

- ولكن هل تعرف على الأقل ما هي السلسلة الصفرية؟

كان قد بدأ يصيح كل منهما على الآخر. لوح الجار بيديه من فوق رأسه، تشبث بظهر السرير ثم استوى معتدلاً لكي يحرر صوته الذي أخذ يرن في اختناق وصأصأة. وفجأة صمتا معا دفعة واحدة كأنهما شاهدا أنفسهما من الجانب الآخر. وأصبحت مواصلة الحديث تشكل خطرا.

- افتح لي، من فضلك، التلفزيون: طلب الجار مشدداً في لطف واحترام.

- استرح- أجاب ألكسي بتروفيتش منحنياً دون أن يتنازل أمام الجار رغم لطفه وتأديبه: هذا مضر لك.

وفي نفس الوقت راقب نفسه مندهشاً : لماذا كل ذلك؟

اندهش الجار أيضاً:

- ألكسي بتروفيتش، لكنك لست في غابة!

- هذا هو الأمر بالضبط. هناك لا نضع أصحابك، الذين جلبوا لنا العار، فوق أشجار الصنوبر، ولا نعلقهم على أشجار عيد الميلاد؛ ولذا فالوحوش عندنا أكثر شرفاً واستقامة من الناس.

- نعم، أعتقد كما تريد. ولكن هل من الممكن فتح التلفزيون؟

- استرح! لم يعرف ألكسي بتروفيتش نفسه، لم يفهم إصراره، وأخذ يتخيل كيف سيتعذب بعد ذلك من الخجل. ولكنه تمسك مشدوها برأيه.

لم ينتبه عندما ضغط الجار على الزر. دخلت الممرضة تاتيانا فاسيليفنا وانحنت أمام الجار:

- هل هناك ألم، يا أنطون إليتش؟ هل أعد مسكناً للألم؟

– أعدي! أجاب في غضب. وافتحي لي، من فضلك التلفزيون.

انتصبت الممرضة التي التفتت في توتر وتساؤل ونظرت إلى ألكسي بتروفيتش. فأومأ إليها، وخرج.

IIIIIIIIIIIIIIIIII

لاحت الشمس من تحت تماوج السماء الأرجواني المتواري تارة، وتارة أخرى ضاعت فيه كما في الأمواج. وفجأة أفلتت من مكان ما بقعة شمس شاحبة. راحت تركض في الممر بين الأشجار. قفزت على المقعد الخشبي الطويل المطلي حديثا بلون سماوي فاتح، ثم اندفعت بسرعة على جدار الغابة الأسود. وانتشرت الحديقة على امتداد الاتجاهات الأربعة، وفي ثلاثة اتجاهات قطعت الحديقة ممرات بين الأشجار وشريط إسفلتي لطريق السيارات عن الجوانب التي امتدت فيها طرق المشاة بالمقاعد الخشبية الطويلة المصفوفة عليها بكثرة. كانت الطرق تتفرع أيضاً إلى داخل الغابة، وهناك أيضاً كانت المقاعد الخشبية منتشرة على شكل بقع زاهية فوق الأرض الجرداء الموحلة. وهناك أيضا تدلت كؤوس المصابيح المقلوبة من دعامات رفيعة بيضاء بأعناق مقوسة.

بالأمس فقط سمحوا لألكسي بتروفيتش بالتنزه. وبالأمس فقط عثر على معطفه وحمله إلى غرفة تغيير الملابس، والآن بعد أن ارتداه خرج لأول مرة إلى الهواء. في البداية تراءى له أن الطقس بارد حيث هبت عليه دفقة رطبة منداة بمجرد خروجه، ولكن ذلك كان شيئاً طبيعياً بعد رقاد دام لمدة أسبوع. بل وأيضاً من قبل ذلك– بفترة انقطاع لا إرادي بعد شهر من الرقاد في غرفة عابقة برائحة المرض الراكدة، بعد التقلبات في حُمَّى الأدوية، والتقلبات التي لا تقل عنها في حمى الحكايات عما يمكن أن

يحدث إذا أخذ ضربة برد والتهب المكان الذي توارى فيه الرّدب خالد الذكر. ولكنه اعتاد الطقس سريعاً، ولكن حسنا: الأرض تتنفس، الغابة تتنفس رائحة العفونة اليابسة، السماء المكشوفة تتنفس، الهواء مشبع بروائح تخمر ربيعي حلوة، تخدر وعيه، تدير رأسه، وتثير حرقة في حلقة. خرج ألكسي بتروفيتش إلى أحد الممرات بين الأشجار، وصل إلى آخر الإسفلت، والأرض أيضا لا تهتز ولا تتمايل من تحت قدميه، فروع الأشجار الصغيرة لا تتقصف ولا ترتعش، لا تلمع شبكات الدنتيلا بلون فضي في الركن المبلل حيث مكان الثلج الذي ذاب... تذكر أنه رأى في نافذته من خلال الأشجار العارية خط مياه، ذهب إلى هناك حيث يمكن أن يجده. انتهى إلى نهر صغير بمياه قاتمة وجزيرة صغيرة مكومة في المنتصف وقد ألقى عليه جسراً خشبياً صغيراً مقوسا. عندئذ ضربت الشمس بأشعة ذهبية أضاءت النهر وجعلته أكثر أسطورية. وصار الجو دافئاً.

عثر ألكسي بتروفيتش على أريكة خشبية مريحة. كان النهر مرئياً مع الجزيرة والجسر، وهو نفسه متواز في عمق حرش متألق ومريح، فجلس عليها وهو يتكئ على أسفل ظهره. كل شيء كان بجواره، السماء التي شتتت السحاب إلى اليسار، نحو الشرق، ومرآة النهر المرحة المحددة وكأنها في إطار من خطوط الطمي الدهنية الملساء، وشجرة «بتولا» في نصف دائرة على يساره بفروع انحنت إلى أسفل المياه، وسياج حديدي متشابك من مشغولات مزخرفة خلف النهر، وأصوات الناس الآتية من ناحية اليمين، من الممرات بين الأشجار... كم كان جميلاً الاستسلام للشمس، وإغماض العينين، والشعور بأن كل ذلك إلى جوارك.

كان قد غفا، ولكنه سمع وقع خطوات من اليسار، وسمع كيف استقرت هناك على نفس الأريكة الواسعة على الطريق والمتجهة بشكل عرضي نحو النهر.

- فيتكا! فيتكا!- تناهى صوت سعيد وباكٍ لامرأة شابة- كيف اجتاز حقا؟

- وما الذي هناك لا يمكن اجتيازه؟ - أجاب فيتكا في توتر- يمكنني أن أجتاز أي ظلمات إليك.

- ولماذا الظلمات؟

- إذن الأنوار. ولو حبستك التنانين هناك في قصر قديم على طرف صخرة، لاستطعت أيضاً المرور إلى هناك بجوار الثعبان الجبلي بكل رؤوسه الخمسة والعشرين.

لم تستطع أن تتماسك، فأجهشت ببكاء شديد:

- أحبك يا فيتكا.

- هه، ما هذه المصيبة- أجاب هو باستخفاف متعمد- وأنا أيضاً أحبك، ولكن لا أحد يبكي بسبب ذلك.

- أنا ضعيفة. ومازلت حتى الآن أخاف.

- لا تخافي، يا ليوسيا، لقد مر كل شيء بسلام، أضاف الشاب شيئاً ما أيضاً، ولكن ألكسي بتروفيتش لم يلتقطه. ولم يكن يود التنصت عليهما، ولكنه علاوة على ذلك أيضاً لم يود، وهو الذي تدّفأ وسُبي عقله، أن ينهض ويمر من أمامهما لأنه من الممكن أن يفزعهما.

- لماذا يتعاملون معك هكذا؟: سألت هي.

- أنت تعرفين: عقولنا، أنا وأنت، ليست مركبة بالمقلوب. تارة ما نفعله ليس صحيحاً، وتارة أخرى لا نفعل ما ينبغي، أتعرفين يا ليوسيا...

- صمتت، ثم سألت في توتر:

- أين تختبئ؟

- لا- قال بسرعة- فليختبئوا هم. أنا على أرضي.

- قل لي الحقيقة فيتكا..

- أنا أقول الحقيقة، الحقيقة وليس إلا الحقيقة.. كان يتحدث بصوت متقطع الأمر الذي طاب لها. تعافى بسرعة. سيأتي الصيف، وسنذهب معا إلى الجزيرة « فالام»، وهناك نعقد قراننا. سيعطوننا صومعة، لقد وعدوني في مسكن الدير.. وبجوارنا، تحت النافذة الصغيرة، سوف تطبطب المياه. ولن تكون هناك روح واحدة غريبة حولنا، كل شيء لنا وهناك سوف تتقوين ويشتد عودك.

- فيتيا، هل تختبئ هناك في مسكن الدير، هه؟ قل لي.

في رجولة، وبشكل صلب:

- أنا لا أختبئ في أي مكان. أعطيك كلمة شرف. تعافي، ولا تفكري في ذلك.

خيم عليهما الصمت لفترة طويلة. حدثت بقبقة: ألقى أحد ما بحجر في المياه. خشخشت من وراء الأشجار أصوات المتنزهين في الممرات. حلّق سرب عصافير وهو يصدر أصوات نخير، والطقس يزداد دفئاً وهدوءا، والشمس تبعث بدفئها في لطف. راح ألكسي بتروفيتش مرة ثانية في النوم. وثانية بدءا يتحدثان من الأريكة المجاورة، ولكنه لم يميز

عما يدور الحديث. بكت الفتاة مرة أخرى، ولكن مداعبة الشاب الرقيقة هدّأتها . كان كل شيء كما في الحلم. وكما في الحلم، في مكان ما بعيد بعيد، تعالى رنين أجراس. في البداية متتابع، وقور، وبعد ذلك سريع تماما، ومتوتر جداً يحشد الأصوات التي أخذت تردد وراءه : بم- بم - بم!

أرهف ألكسي بتروفيتش السمع. الأصوات تبتعد تارة، وتتلاقى تارة أخرى مع الرنين، وكأن طيورا سابحة في الفضاء، كلما غاصت سعت ثانية إلى الأعالي لكي تهتف من هناك:

بم ، بم ، بم - أسرعوا إلى معابد الرب،

بم ، بم ، بم - فهي ماتزال ، ماتزال تدعو.

صمت الرنين وفي السكون طلبت الفتاة:

- شغّل.

- ستبكين مرة أخرى.

- سأحاول. شغّل.

أفاق ألكسي بتروفيتش تماماً. وعندما حوّل عينيه رأى على مسند الأريكة المتشابك رأسين مستندين إلى بعضهما البعض-أحدهما في طاقية بيضاء مغزولة، والآخر عارٍ ضخم بشعر أشقر وقَصة رجالية. طن الرنين مرة ثانية. «أجل إنه شريط، أغنية»- خمن ألكسي بتروفيتش. قرع الرنين، ألقى الشاب والفتاة بذراعيهما على كتفي بعضهما البعض، ضم كل منهما الآخر على نحو أكثر قرباً وصاحبا معا المغنين بصوت جميل عميق يخرج من الصدر ويتساءل في صرامة:

بم ، بم ، بم - أين أنتم أيها الأبناء الروس؟

بم ، بم ، بم - لماذا نسيتم الأم ؟

بم ، بم ، بم - ألستم أنتم الذين على هذه الموسيقى؟

بم ، بم ، بم - سرتم بزهو إلى الشهادة؟!

غصت الفتاة، التي مالت تماماً، ببكاء مر. أغلق الشاب المسجل. نظر ألكسي بتروفيتش دون أن يتوارى، في اتجاههما. أخذ الشاب يهدئ الفتاة ممرراً يده على ظهرها. وراح يرنو في ذهول في اتجاه ما أمامه مباشرة.

... طوال نصف عام بعد ذاك سوف يظل ألكسي بتروفيتش يبحث عن هذه الأغنية سائلاً جميع من حوله أين يمكن العثور عليها، إلى أن يظهر ذات مرة أحد أتراب ألكسي بتروفيتش، وهو على كل حال ليس شابا، يقاربه في العمر، يحكي له عن زمان راهب دير بسكونو- بتشيرسكوى الذي نظم هذه الأغنية، ومعها أغان أخرى كثيرة من أجل رعاية الروح الروسية الهائمة.

عالم فالنتين راسبوتين

بقلم المترجم

«أنا واثق من أن الطفولة تصنع من الإنسان كاتبا، وكذلك القدرة في سن مبكرة على رؤية وملاحظة كل ما يعطيه الحق في الإمساك بالقلم بعد ذلك. إن التعليم والكتب والخبرة الحياتية تربي هذه الموهبة وتصقلها في المستقبل، ولكنها يجب أن تولد في الطفولة». كتب فالنتين راسبوتين ذلك عام 1974 على صفحات جريدة «الشباب السوفيتي» بإقليم إرقوتسك. وهو هنا لا يقصد إطلاقا الانطباعات الطفولية فقط، وإنما أيضا تلك الثقافة والخبرة والمخزون الحياتي التي بدأ الإنسان في تلقيها وفرزها وهضمها منذ وعيه على الحياة. هذه الجملة تحديدا يمكن أن نلمحها في قصته القصيرة «ماما ذهبت إلى مكان ما» التي كتبها عام 1965. فالطفل الصغير الذي استيقظ من نومه ولم يجد أمه ـ وأمه بالذات ـ بجواره، في البيت، يبدأ في مراقبة العالم، ورصده واكتشافه. ولكنه لا يتوقف عند ذلك، بل يمعن في تعميق الرؤية حين ينفصل عن هذا العالم، يكسر الحواجز والأطر ـ بالمفهوم الدرامي المسرحي ـ ويأخذ في إلقاء نظرة كونية شاملة على الموقف من بعيد، أي من جهة أخرى، ثم يعود بعد لعبته الطفولية البسيطة ليدخل ثانية إلى حياته ـ إلى عالمه الطفولي البسيط بعد أن أدرك

على مستوى الخبرة بعض الأشياء والأحاسيس الهامة مثل الخوف والوحدة، وهي الأمور التي لا يدركها فقط الصغار، وإنما الكبار أيضا. ولكن هناك فرقا كبيرا في هذا الإدراك بين الكبار والصغار، حيث تأتي عملية الإدراك هنا ليس عن طريق السن والقدرة على الحركة، والحرية في اختيار التجربة، وإنما عن طريق التماس المباشر مع عملية الإدراك نفسها والتقاطع معها.

البدايات

ولد فالنتين جريجوريفيتش راسبوتين فى 15 مارس عام 1937 في قرية «أوستا أودا» على نهر أنجارا بمقاطعة إرقوتسك بسيبيريا. بدأ حياته محررا صحفيا، وفي مطلع الستينيات صنفه البعض، بعد نشر قصصه الأولى، بأنه فتح جديد في الأدب الروسي. ذلك الأدب الكوني الصعب الذي ما يزال يحافظ على ملامحه الخاصة وخطوطه العريضة وقاعدة انطلاقه ـ بالرغم من تعدد المدارس والاتجاهات وتشابكها أحيانا، وانفصالها في أحيان أخرى ـ في علاقته بمجمل الأدب الروسي منذ القرن التاسع عشر، الأمر الذي يجعل عملية الفرز والتصنيف غاية في الصعوبة، بل ويجعل عملية نسب العمل الأدبي إلى مدرسة ـ نزعة ـ بعينها ضربا من العبث، وربما الاحتيال. فقط يمكن أن ننسبه إلى اتجاه ما يستند، مهما كان اسمه، إلى التربة الروسية الأدبية مميزة الملامح.

أنهى فالنتين راسبوتين دراسته بجامعة إرقوتسك عام 1959 في كلية الآداب والتاريخ. وفي الفترة من عام 1958 حتى 1966 عمل بالصحافة في كل من إرقوتسك وكراسنويارسك، وفي عام 1958 عمل مراسلا

لجريدة «الشباب السوفيتي»، وفي عام 1959 بدأ العمل بالتلفزيون، ثم مراسلا لصحف أخرى. وفي عام 1961 صدرت له أولى مجموعاته القصصية بعنوان «نسيت أن أسأل ليوشكا». وصدرت مجموعته الثانية «إنسان من العالم الآخر» عام 1965. وفي عام 1966 صدرت له ثلاثة كتب دفعة واحدة تضم مقالاته عن سيبيريا وحياة الجيولوجيين وعمال البناء.

في نهاية الستينيات بدأت الملامح العامة لكتابات راسبوتين تظهر بوضوح، وأصبح أحد أهم الكتاب الذين يكتبون عن القرية الروسية. في ذلك الوقت ـ في نهاية الستينات ـ ذاعت شهرة فالنتين راسبوتين في أنحاء الاتحاد السوفيتي بعد روايته الأولى «نقود لماريا» (1967)، وبعد ذلك خرجت إلى النور روايته الثانية «المهلة الأخيرة» (1970)، ثم رواية «عش وتذكر» (1974). وفي عام 1976 كتب روايته «وداعا ماتيورا»، ذلك العمل الذي وضعه على درجة واحدة مع العديد من الأدباء الروس الذين كرسوا حياتهم وأعمالهم وعالمهم الإبداعي للقرية الروسية مهضومة الحقوق في كل العصور والأزمان. بهذه الرواية تحديدا وضع راسبوتين اللمسات الأخيرة على طريق شهرته ليصبح أحد أهم الذين يواصلون التقاليد الأدبية للواقعية النقدية في روسيا، وبذلك نال جائزة الدولة عام 1977.

جائزة الدولة للمرة الثانية

لم تنأت شهرة راسبوتين من إبداعاته الأدبية فقط، ولكن إلى جانب كل ذلك أكدتها مؤلفاته الأخرى، ومقالاته وكتبه التي وضعته على طريق

أجداده المشاكسين الذين كانوا يحشرون أنوفهم في كل شيء مما كان يغضب قياصرتهم ورؤساءهم على الدوام. ففي عام 1969 ظهر كتابه «مصيري سيبيريا»، ثم «ذكريات عن نهر» (1971)، وفي عام 1972 ظهر كتاب «إلى أسفل وإلى أعلى مع التيار». وربما يكون عنوان كتابه «مصيري سيبيريا» هو الذي يمكنه أن يوضح واحدة من أهم الركائز التي يستند إليها الأدباء الروس في إبداعاتهم وفي حياتهم الشخصية. إن راسبوتين في هذا الكتاب يتناول سيبيريا من ناحية أيكولوجية، وليس من سمعتها المنتشرة كمنفى. ومع ذلك فتسمية الكتاب بهذا الشكل تدفع إلى التداعي بصورة أو بأخرى. إن سيبيريا تشكل إحدى أهم المعضلات وأخطرها في حياة روسيا منذ ما قبل بطرس الأول ويكاترينا الثانية، وذلك من حيث موقعها وأهميتها وثرواتها التي لم يتم الكشف عنها حتى النهاية. وهي من ناحية أخرى تشكل في وعي الإنسان الروسي مظهرا من مظاهر النفي الذي يمتلك في مخيلة الإنسان العادي والكاتب ـ على حد سواء ـ أبعادا مأساوية يمكنها ببساطة أن تحيلنا إلى العديد من التداعيات الخاصة بمصائر الكتاب الروس. إننا نعرف مصائر مأساوية لكتاب كثيرين في العالم، ولكن عندما يدور الحديث عن مصير الكاتب الروسي نجد المأساوية صفة عامة، أو ركيزة أساسية تجعل هذا الكاتب موصوما بها حتى النهاية. وإذا كانت علاقة الكاتب بالسلطة تشكل معادلة صعبة ومعقدة منذ بداية الكون، فهي في روسيا، وبالنسبة للكتاب الروس تشكل حجر الزاوية. فهناك من ارتبط أو تماس مع السلطة وتقاطع معها في الطريق، ثم انقلب عليها بصورة كانت، وما زالت تحير القائمين على هذه السلطة. وهناك من لم يكن له علاقة مباشرة معها، ولكنه مع ذلك كان يتحرش بها، ليس من أجل الشهرة أو

الحصول على مكاسب أو تفويضات، ولكنه المصير المأساوي، العبثي، الذي تذكرنا به التراجيديات اليونانية القديمة. لم يفلت أحد من الكتاب الروس من هذا المصير بداية من بوشكين وحتى راسبوتين وغيره في عصرنا هذا. ولكن فالنتين جريجوريفيتش يتميز في وقتنا الراهن بمجمل هذه الصفات، أو على نحو أدق بهذا المصير. فهو كاتب غزير الإنتاج، وإنسان ذو طبيعة نشطة يمتلك طاقة داخلية جبارة متدفقة تدفعه دوما إلى الحركة والخوض في كل ما يهم الإنسان بوجه عام، وعلى الأخص ما يهم روسيا والإنسان الروسي، وما يرتبط بتاريخهما وهمومهما وقضاياهما، الأمر الذي دفعه منذ عدة سنوات إلى تأجيل العمل الأدبي والخوض في السياسة، بل واتخاذ مواقف حادة ضد السلطة الروسية في تسعينات القرن العشرين عقب انهيار الاتحاد السوفيتي. وهنا لا يمكننا أن ننسى أو نتجاهل أنه كان أيضا ضد السلطة بدرجة ما في المرحلة السوفيتية، وهو على المستوى الفكري ـ النظري، وربما الواقعي أيضا، ضد المرحلة القيصرية.

أما الجانب الآخر في طبيعة فالنتين راسبوتين فيظهر في الهدوء والدماثة اللذين كان يتميز بهما أنطون تشيخوف رغم السخرية المرة والحزينة التي لا تتعارض أبدا مع هاتين الصفتين بما تمتلكان من عمق واتساع، حتى أنهم يشبهونه في روسيا بمسيح يعيش منفيا في صحراء. وإذا كان الترحال والسفر والتحرك الدائب والمستمر من صفات الكاتب عموما سواء كان شاعرا أو روائيا أو فيلسوفا أو مفكرا، فتلك الصفات على وجه الخصوص تمثل للكاتب الروسي الطريق الأول والأوسع في الحياة من أجل عملية الاكتشاف والتتبع والرصد. فبداية من بوشكين وجريبويدوف وتورجينيف

وجونتشاروف وديستويفسكي وشيدرين وجوجول وليرمنتوف حتى يسنن ومايكوفسكي وآخرين كان السفر والترحال وأحيانا الهجرة أو المنفى أو الإقامة خارج روسيا طريقا للاكتشاف، وقد استطاع أنطون تشيخوف ـ على سبيل المثال ـ أن يضيف بعدا أكثر أهمية في هذا الطريق عندما ركب «الكارتة» وذهب مجازفا بحياته إلى جزر سخالين، ثم كتب كتابه الرائع الذي أغضب القيصر كثيرا. هنا يأتي دور فالنتين راسبوتين على هذا الطريق بالذات، فنجده موجودا في كل أنحاء روسيا في وقت واحد تقريبا، وخصوصا في تلك المناطق التي تعاني من المشاكل بكل أنواعها، بداية من المصاعب الاقتصادية حتى كوارث الانهيارات والحرائق. وهو يفعل ذلك ليس فقط من قبيل الواجب والمبدأ أو التحيز للفقراء والمهمشين، ولكنه يقوم بذلك وقبل كل شيء لأنه الطريق ـ المصير ـ الحقيقي للكاتب الروسي الذي يمثل له قدرا لا مفر منه، والذي سار عليه أعظم الكتاب الروس في القرون الماضية، ولا يزال بعضهم يحافظ ـ ربما بدون قصد، أو حتى بقصد ـ على هذا النمط، وذلك تحديدا ما يجعل راسبوتين أحد أهم الأصوات العالية إذا ما دار الحديث عن روسيا، والطبيعة الروسية، والإنسان الروسي، ووحدة روسيا. إضافة إلى كل ذلك، ففي جميع أعماله الإبداعية، وحتى في كتبه، يوجد عالم روحي خاص حيث تتشكل نماذج أبطاله أساسا بكينونة محددة، الأمر الذي يجعل فيها الحكم الأول والأخير لضمير الإنسان. وعموما فهذه الخصوصية بالذات موجودة بوضوح في أعماله «المهلة الأخيرة» و«عش وتذكر» والتي تممها بروايته الانتقادية الحادة «الحريق» عام 1985 ونال بها جائزة الدولة للمرة الثانية.

السلطة ومواقف راسبوتين السياسية

لدى فالنتين راسبوتين مجموعة من الآراء والمواقف السياسية التي تبدو في ظاهرها متناقضة إذا ما نظرنا إليها نظرة عابرة. ولكنها في مجملها تشكل جزءا هاما من العالم الإدراكي للكاتب، وتتكامل مع منظومته الفكرية المعقدة، والتي كما قلنا في السابق إنها الركيزة الأساسية، والمصير الذي يلاحق الكاتب الروسي منذ القدم، خاصة وأن راسبوتين لم يتماس أو يتقاطع بصورة عابرة مع السلطة، وإنما توغل فيها، ومارس السياسة، واتخذ مواقف حادة للغاية. وعلى الرغم من كل ذلك فهو يؤكد دائما على أنه ليس شخصية سياسية: «السياسة ـ أمر قذر، الإنسان المستقيم ـ الشريف ـ لا يجد فيها ما يفعله. وهذا لا يعني أنه لا يوجد فيها أناس شرفاء، ولكن كقاعدة فهم محكوم عليهم بذلك». أما الذين يصنفونه بأنه معاد للمرحلة الشيوعية في حياة روسيا، فيتوقفون كثيرا أمام قوله «لقد أعادت روسيا هضم الشيوعية، ومن ثم وظفتها لخدمة دولتها».

في بداية سياسة البيريسترويكا قام ألكسندر نيكولايفيتش ياكوفليف عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي بدعوة راسبوتين إلى مكتبه، وكان كل منهما يدرك جيدا مدى العداء المتبادل، ولكن المقابلة تمت بهدوء لأنها كانت بتوجيهات من ميخائيل جورباتشوف الذي كان في حاجة ماسة وقتها إلى تأييد ومساندة الجميع، وخاصة الكتاب، وراسبوتين على وجه الخصوص. استمر اللقاء ما يقرب من ساعة كاملة ظل خلالها راسبوتين معتصما بالصمت التام، وكذلك فعل ياكوفليف.

وفي النهاية قال المنظر الأول للحزب: «أعتقد أنكم لن تنتقدونا كثيرا». ويبدو أن العبارة كانت تتضمن الكثير من التحذيرات، إلا أن راسبوتين ظل صامتا. ومع ذلك لم ينقذه هذا الصمت من انتقاد أنصاره وجمهور قرائه وهجومهم عليه. وفي نهاية عمر البيريسترويكا ردد راسبوتين في سخرية ومرارة: «إنني أتذكر بكثير من الخجل أحاديثي مع جورباتشوف ...».

في عام 1986 تم انتخاب راسبوتين سكرتيرا لمجلس إدارة اتحاد كتاب الاتحاد السوفيتي، وسكرتيرا لمجلس إدارة اتحاد كتاب روسيا السوفيتية. وفي عام 1989 أصبح نائبا للشعب بترشيح من اتحاد كتاب الاتحاد السوفيتي، وصار عضوا في لجنة المجلس الأعلى للإيكولوجيا وترشيد استخدام الموارد الطبيعية بالاتحاد السوفيتي. وبعد انتخاب ميخائيل جورباتشوف رئيسا للاتحاد السوفيتي في المؤتمر الثالث لنواب الشعب، قام بتوجيه الأوامر إلى راسبوتين بالانضمام إلى المجلس الرئاسي للاتحاد السوفيتي. وظل فالنتين جريجوريفيتش عضوا بهذا المجلس حتى تم حله في نوفمبر عام 1990 بعد إنشاء مجلس الأمن القومي.

أما علاقته بالسلطة الجديدة في روسيا، فكانت متنوعة ومتعددة الأوجه أيضا. في البداية قال راسبوتين عن بوريس يلتسين (أول رئيس روسي في فترة ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي): «لقد استدعى هذا - أي يلتسين - إلى الحياة تلك القوى المدمرة التي ساعدته في الوصول إلى السلطة، وهي نفسها التي تعمل الآن ضده. ليساعد الله الرئيس في التغلب عليها». ولكنه يعود ليردد في موقف آخر: «لن نتعجب إذا ما صحونا غدا واكتشفنا أن رئيس روسيا قد أصبح - بحجة الجمع بين وظيفتين - رئيسا لشركة ما عابرة للقارات». وبالتالي ففي عام 1992 تم انتخابه في الاجتماع

الدوري للمجلس القومي الروسي رئيسا إلى جانب كل من ألكسندر ستيرليجوف وفالنتين فيودروف. وفي المؤتمر الأول لهذا المجلس انتُخب رئيسا إلى جانب كل من ستيرليجوف وجينادي زيوجانوف. وفي أكتوبر 1992 أصبح عضوا باللجنة التنظيمية لجبهة الإنقاذ الوطني. وظل طوال فترة التسعينات من أبرز قادة المعارضة الروحية في روسيا. أما الخطوة الإضافية التي قام بها رئيس روسيا بوريس يلتسين، ولا يخفى على أحد مغزاها، رغم أن لا أحد يعرف ماذا كان يمكن أن يترتب عليها فيما بعد، فهي قيام يلتسين بإرسال تلغراف بتاريخ 14مارس 1997 لتهنئة راسبوتين بعيد ميلاده الستين جاء فيه: «أنت أكبر كاتب روسي واسمك مكتوب بحق في تاريخ الأدب الروسي والعالمي. وقد أصبحت أعمالك الأولى حدثا في الحياة الثقافية والاجتماعية للدولة. لقد تحدثت بشجاعة وبصوت ينذر بالخطر عن أصعب قضايا حياتنا، والقراء يجدون في أبطالك أفضل ملامح وصفات الطابع القومي الروسي - قوة الروح والكبرياء والضمير - وأنا أعرفك كإنسان محب لروسيا. وبصرف النظر عن اختلاف وجهات نظرنا، فأنا أنظر باحترام بالغ إلى أعمالك الإبداعية، وإليكم شخصيا...».

هكذا يجد القارئ والمتابع لحياة الكاتب الروسي المعاصر فالنتين جريجوريفيتش راسبوتين مجموعة هامة من المحاور التي تتشكل منها شخصيته ومنظومته الفكرية. ومن الصعب تماما إصدار رأي قاطع، أو حكم نهائي على الكاتب في ظل صور عديدة من التناقضات التي تحيط به من ناحية، ومن ناحية أخرى يشارك فيها شاء أم لم يشأ بصورة ربما تبدو له منسقة تماما مع قناعاته الشخصية، بينما يرى الآخرون في ذلك مسوغات

تتخذ ذريعة في الهجوم على الكاتب أو نفي إبداعاته.

أما إذا اقتربنا من فالنتين راسبوتين كروائي مبدع فسوف نكتشف جوانب أخرى ربما تكون مكملة للصورة. حيث إنه من الخطأ الشديد، الذي يقترب من حد التضليل والتعمية، أن نقوم بتجزيء الكاتب أو بالتعامل مع عناصر تكوينه بمعزل عن بعضها البعض. فمن يا ترى يمكننا وضعه إلى جانب فالنتين راسبوتين؟ فاسيلي بيلوف؟ يوري كازاكوف؟ فيكتور أستافيف؟ سولجينيتسين؟ بونداريف؟ مكانين؟ بيتوف؟... كلهم كتاب روس في غاية الأهمية، إلا أن راسبوتين يختلف عنهم جميعا في أمور عديدة على المستويين الشخصي والإبداعي على حد سواء.

فلسفة الأسماء عند راسبوتين

يسود اعتقاد، يبدو غريبا للوهلة الأولى، بأنه لدى أي فنان لابد وأن يوجد بالضرورة عمل قد قيل فيه أكثر ما يمكن، أما الأعمال الأخرى لهذا الفنان فتعتبر مدخلا أساسيا، أو في أفضل الأحوال مقدمة لهذا العمل حتى وإن جاءت بعده. هناك أيضا فرضية أخرى ربما تبدو أكثر غرابة، وتقضي بأنه لدى الفنان الحقيقي نقابل على الدوام تلك المسميات التي تحدد بالضبط ـ في عدة كلمات ـ المغزى الأساسي، والمعنى الكلي لعمله الإبداعي. بالنسبة لفالنتين راسبوتين يبدو كل ذلك طبيعيا وليس غريبا على مجمل إنتاجه الأدبي. ولو تساءلنا: في أي عمل يمكن أن نرى راسبوتين قد قال أكثر ما يمكن، فسوف تقفز الإجابة تلقائيا من بين طيات عالمه لتعلن عن روايته «عش وتذكر». وإذا تساءلنا: أية تسمية من التسميات استطاعت أن تحدد المعنى الأساسي لإبداعاته، فسوف يتعين علينا التكرار: «عش

وتذكر». كلمتان فقط تعبران عن مجمل العالم الإدراكي للكاتب.

إن راسبوتين في مسميات أعماله الإبداعية يبدو انتقائيا ودقيقا لأبعد الحدود. وفي كل تسمية يمكننا أن نلمس شيئا ما روحيا، مقدسا، ثقافيا، دينيا، تراثيا، والمدهش أن كلا من هذه الأشياء يمكن أن نضع وراءه كلمة «روسي» لنكتشف على الفور أن العالم الروحي، المقدس، الثقافي، الديني، التراثي، هو روسي في الأصل عند فالنتين راسبوتين. وذلك يعني أن العالم المُدرَك لدى الكاتب يقف على قاعدة الأدب الروسي، التي استطاعت أن تشكل تربة شديدة الخصوصية في إطار الأدب العالمي. ورغم كل ذلك، وبرغم ما تبدو عليه روايته «عش وتذكر» من مخالفتها النسبية للتفسير السابق، إلا أنها ـ مع ذلك ـ ترن في الأذن كتعويذة، أو ربما كتحذير ديني مثل تحذيرات الإنجيل ووصاياه «... وتذكر خالقك في شبابك حتى لا تأتي الأيام الصعبة، وحتى لا تأتي السنوات التي ستقول فيها: «ليس لي فيها لذة!» إنها تسمية تبدو في نهاية الأمر كرنين الأجراس، وقرع نواقيس الخطر.

ذاكرة الماضي والمستقبل

«عش وتذكر». والذاكرة عند راسبوتين ليست فقط في، أو عن، الماضي. إنها جزء من الحاضر. والتذكر كعملية، غير محدد ولا يسير في خط مستقيم ومباشر. إنها عملية متفردة تخفي الكثير من التفاصيل والذرات الدقيقة غير المرئية، تقلص أشياء تبدو وكأنها لم تحدث، وتضخم أشياء أخرى تبدو وكأنها قد حدثت لتوها، أو ربما ستحدث الآن، أو بعد قليل. ولكي نتجنب أهوال الذاكرة الانتقائية فلابد وأن نعتصم بشيء ما دائم

ومتطور وفعال، بشيء روحي في عمومه يبعدنا عن العصبية واستخلاف الآلهة في الأرض، ويقربنا من الإنسان لنكتشف عظمته وعبقريته حتى في أحلك الظروف. إنها الثقافة بمعناها الواسع والعميق. الثقافة ـ ذلك المصدر الدائم لعملية التطور والإنماء على المستويين المادي والروحي. الثقافة ـ كذاكرة إنسانية جماعية للأجيال الماضية والحاضرة والمقبلة. من هنا يتضح أننا بعد الموت لا نفنى، ولكن فقط نجد أن ذاكرتنا التي كانت من قبل داخلنا في الـ «أنا» قد استدارت، أي «عادت» إلى الخارج لتتقاطع مع الذاكرات الأخرى الخارجية. ولنكتشف أن الثقافة هي أحد وجوه الديمومة، وخصوصا الديمومة البشرية، وهي ذاكرة حية للأموات ـ فقط ـ عضويا، وما نحن إلا كائنات تعيش في عمق ذاكرة الأجيال الماضية. وكلما نسينا ثقافتنا، نسيتنا هي الأخرى (ونَسِيَنا أجدادُنا) على الرغم من استحالة ذلك بالنسبة لهم ولنا في آن واحد. وهذا هو المعنى الفعلي للثقافة، ولو على الأقل من وجهة نظر فالنتين راسبوتين في أعماله الروائية على وجه الخصوص.

ليس مصادفة أن تأتي معظم ـ إن لم تكن كل ـ مؤلفات فالنتين راسبوتين بنهايات مفتوحة مثل بداياتها أيضا. فهو يبدأ وكأن هناك شيئا ما قديما قد حدث، أو ما زال يحدث، أو أن صداه لا يزال يطن في الذاكرة. بعد ذلك ينتهي العمل على الورق، ولكن دائما يظل هناك شيء ما سوف يحدث. فلا أحد في رواية «عش وتذكر» يدري مصير أندريه جوسكوف. النهاية مفتوحة تماما، بل ويمكن لأي كاتب آخر أن يكتب رواية كاملة عن مصير هذا الإنسان. وفي «المهلة الأخيرة» نظل نفكر ونتألم: مَنْ مِنْ أولاد العجوز (أنّا) سيحضر دفنتها. إن راسبوتين يترك الأمر لكل منا على حدة ليواجه

نفسه بذلك السؤال. وفي معظم مؤلفاته نجد ما يسمى بالصلاة الأخيرة، أو صلاة الوداع. صلاة الوداع لـ «ناستينا» في رواية «عش وتذكر»، وللعجوز في «المهلة الأخيرة»، وللعجوز أيضا في قصته القصيرة الرائعة «العجوز»، وفي قصته «لا أستطيع». إن صلاة الوداع تلك تشكل لدى راسبوتين صلاة مسيحية حقيقية، وفي ذات الوقت تصيغ ـ تخلق ـ أعمق خلايا الذاكرة، لأننا إذا تذكرنا الماضي والمفقود والضائع، فلربما نستطيع أن نفكر في المستقبل أو على الأقل في الحاضر. إن الذاكرة وعملية التذكر مرتبطتان بالفعل وبالحركة الدائبة الدءوبة من أجل فتح ثغرة في الواقع الأصم المهيمن. وبمعنى أدق، فالذاكرة لدى راسبوتين لا تقتصر على عملها الوظيفي الفيزيولوجي، وإنما تتجاوزه إلى فعل البحث والتقصي والرصد، بل وأحيانا إلى البحث في نفسها، أي البحث في المنهج، في العدسة التي نرى بها الأشياء، وليس فقط البحث في الأشياء ذاتها. ومن هنا يشغل موضوع الحياة والموت عند راسبوتين أهمية كبيرة لدرجة أنه يكاد يصير موضوعا قائما بذاته. فلديه دائما شيء ما يخرج، أو أحد ما يذهب، يرحل عن العالم والحياة. هناك الكثير الذي يذهب لكي يتذكره الإنسان، والكثير الذي يبقى ـ أيضا ـ لكي يفكر فيه الإنسان.

الطبيعة الحية وديمومة الذاكرة

الطبيعة لدى راسبوتين تلعب دورا أساسيا في تشكيل وصياغة الذاكرة. ليست الطبيعة الجميلة والهواء العليل والثلج الأبيض الجميل من حيث الرؤية الخارجية السطحية للأشياء. إنها الطبيعة الحية: الشواطئ، المياه، السماء، الجليد على الأرض، الجليد المعلق بين السماء والأرض، الرياح،

الجبال، الأنهار الجارية؛ لأن جميع تلك الأشياء تمتلك في داخلها طبيعة حية أخرى موازية لما تمتلكه في أفكارنا نحن من حركة دائبة. فهو يمزج الماء بالأرض بالسماء، يعيد تشكيل العالم الطبيعي من أجل اكتشاف وإعادة تشكيل وعي الإنسان. إنه يكشف حالة الإنسان من خلال كشف حالة الطبيعة الحية ذاتها، ومن ثم يُخرج روح الإنسان من جسده ويوحدها مع الطبيعة، يبثها فيها لتتكشف بعد ذلك كل أبعادها وجوانبها بصرف النظر عن السلبي والإيجابي. فالطبيعة لديه أعلى من الحلم، وهو يتخذ الحلم طريقا إلى الاكتشاف والتأمل والتفكير. يتعامل مع الحالة المعقدة الواقعة بين اليقظة وغياب الوعي المادي المباشر الذي يتعامل مع الأشياء بصورة مباشرة، والذي يتعامل مع نفس تلك الأشياء بأشكالها وصورها الموجودة عليها في اللحظة الآنية. إنه يقف في تلك المساحة ليرصد الأبعاد الخفية للعالم وللطبيعة، وللروح الإنسانية التي لا يمكن أن تتكشف في حالة اليقظة أو تظهر حتى بوضوح.

لقد تمكن راسبوتين من التعامل مع هذه الحالة غير الممسوكة، واستطاع أن يحرك أبطاله تارة طائرين وتارة سابحين، وتارة أخرى سائرين مغلقي العيون ولكن بوعي شديد، وبذاكرة حية متيقظة. إنه يتعامل مع الطبيعة ليس كخلفية غنية بالجمال فقط، وإنما كمنظومة متكاملة معقدة في هارمونيتها وتجانسها، الأمر الذي يجعلها تكتسب بعدا جديدا آخر أعمق وأشمل، فهي لم تلد الإنسان فقط، وإنما تتحكم فيه أيضا على الرغم من أنها تمنحه في ذات الوقت إمكانيات هائلة للفعل. وتلك معادلة غاية في الصعوبة والتعقيد، وتزيد من صعوبة أبطال راسبوتين في علاقتهم بالطبيعة نفسها.

عجائز راسبوتين والذاكرة الحية

إن فالنتين راسبوتين أحد أكثر الكتاب الروس الذين تعاملوا مع نماذج الشخصيات العجوزة، وبالذات السيدات. المرأة بشكل عام عنده تشكل حجر الزاوية، تمثل حالة الفعل واستمراريته وديمومته وقوته النشطة المحفزة. ولكن المرأة العجوز هي الحكمة / الذاكرة ببعديها الروحي والفيزيولوجي. فلديه عدد هائل من العجائز اللائي يحملن، ويحفظن في آن واحد العادات والتقاليد الشعبية والصور الشخصية والطبائع الروحية والنفسية. وهن في نفس الوقت يرتبطن بموضوع الحياة / الموت / الذاكرة الحية ، حيث نكتشف أن الموت لدى راسبوتين ليس موضوع رحيل وفناء بقدر ما هو موضوع تفكير وتأمل فيما تبقى، وعما تبقى، وذلك من أجل إعادة تشكيله وتفعيله كموضوع في مقارنة هائلة ومتشعبة مع ما رحل. والمقارنة هنا ـ وتحديدا لدى عجائز راسبوتين، ولدى راسبوتين ذاته ـ ليست من أجل الخروج بنتائج سريعة، وإنما من أجل فتح آفاق جديدة للآتي الذي لا يعرفه أحد، ولكن يمكن تخمينه / تحديده في احتمالات كثيرة، وبأوجه متعددة. تلك هي خبرة عجائز فالنتين راسبوتين. العجائز / السيدات البسيطات الممتزجات بكل شيء حتى بالأرض وبالسماء وبالمياه والثلوج، بالذاكرة الحية، بالأحفاد الذين رحلوا، وبالأبناء الذين سيأتون، وربما العكس. إن عجائز راسبوتين يتميزن بذاكرة أرضية حية تلقي بظلالها على الفلسفة والروح والذاكرة. فإحدى عجائزه تنادي الأحفاد بأسماء الأموات، تخلط الأزمنة لتصنع زمنا جديدا

خاصا يتواصل فيه كل شيء ويتشابك على نحو يجعله متغلغلا وراسخا في الذاكرة. وتفعل ذلك ليس بحساب الأيام والسنوات، وإنما بالخلط بين الأحياء والأموات: بين أسمائهم، وبين زمن الحياة وزمن الموت. ولكن حياة وموت مَنْ ؟ ومَنْ هم هؤلاء الأموات والأحياء بالنسبة لها؟ أما العجوز الأخرى فهي على فراش الموت، لم تعد ساحرة كما كانت في الماضي، بل أدارت ظهرها منذ زمن بعيد لأعمال السحر. الجميع يعشقونها؛ لأنها تعشق العمل والصيد وتربية المواشي. ولكن ما الذي يعذبها ويضنيها قبل الموت؟ إنها لا تخشى الموت إطلاقا لأنها نفّذت واجبها الإنساني، ولأن ذريتها استمرت وستستمر. ولكن هذا التواصل البيولوجي غير كاف بالنسبة لها. ورغم أنها ترى أن السحر لم يعد وظيفة، إلا إنها في ذات الوقت مؤمنة تماما بأنه جزء من الثقافة، من التراث، من الموروث الشعبي، إذ أنها كانت تعالج الناس أيضا بالأعشاب، كانت تمارس التطبيب بوسائل شعبية من الطبيعة الحية. ولذلك ينتابها الخوف ويتلبسها عذاب شديد قبل الموت. ففي رأيها أن الإنسان الأخير في ذريته، الإنسان الذي تنتهي به الذرية، إنسان بائس وشقي. ولكن الإنسان الذي اكتسب من شعبه ومن ناسه ثروتهما التاريخية ثم حملها معه إلى القبر دون أن ينقلها إلى الآخرين هو... ؟؟؟ إنها تعجز عن وصفه في القصة!!

المرض والموت عند راسبوتين

لقد كانت القوة التعبيرية لدى راسبوتين في أعماله الأولى المبكرة تعكس مدى الحزن والأسى والمعاناة الروحية. أما قوة أبطاله فكانت دائما تكمن في ضعفهم. لا يوجد لدى راسبوتين منذ بداياته أبطال جدد،

حيث ركن إلى نموذج البطل الذي مهما بلغ حافة اليأس والضعف تبقى لديه قوة ما لقول كلمة تعاطف أو انحياز بعيدا عن الشعارات البراقة. ومع ذلك فالموت يسيطر دائما على أعماله وأبطاله. ذلك الموت يأتي على الدوام بدون قتال أو استخدام سلاح. إنه يأتي كظاهرة طبيعية ما تزال خارج الوعي والإدراك، ظاهرة لم يصل إليها العقل البشري بعد. من هنا تحديدا يبدو الموت عند راسبوتين استمرارا لحياة ما.

أما المرض، وحالة ما قبل الموت، حالة لفظ الأنفاس الأخيرة، وعملية الاحتضار ذاتها، فهي أكثر انتشارا في أعمال الكاتب بداية من قصصه القصيرة الأولى في بداية الستينيات، وحتى روايته القصيرة «في المستشفى» عام 1995 مرورا برواية «نقود لماريا» و«عش وتذكر» و«وداعا ماتيورا». إن المرض عند راسبوتين يأخذ أشكالا كثيرة: المرض العضو في قصتيه («في المستشفى» و«ناتاشا»)، مرض الشيخوخة في («العجوز» و«المهلة الأخيرة»)، مرض الإدمان في (لا أستطيع). ومهما انفعل البطل أو سب وشتم، أو هاج وماج وتهور، فهو دائما مريض. المدهش أن مجمل هذه الحالات تم توصيفها جميعا بأنها حالة روسيا الفعلية، وحالة المجتمع الروسي في الأزمنة الأخيرة. إن أولئك الأبطال رغم مرضهم يفهمون كل شيء، ولكنهم في الوقت نفسه لا يستطيعون إيقاف أي شيء، ولا يستطيعون أيضا مقاومة أسباب المرض. والمهم لدى راسبوتين أنه يعلن دائما على لسان أبطاله أن هناك محاولات معالجة وشفاء ربما كانت صحيحة لأنه من المستحيل أن يكون كل شيء غير صحيح. إن راسبوتين لا يوجه أسئلة حول الأسباب أو المتسببين في الأمراض الروسية: أمراض روسيا كدولة، وأمراض المجتمع الروسي كمجموعة بشرية، لأنه ليس

فيلسوفا أو عالم اجتماع. إنه يستطيع التعبير عن كل شيء تقريبا، ولكنه في ذات الوقت لا يعطي إطلاقا تفسيرا لأي شيء. فمن الممكن مثلا أن تكون مصائب روسيا كلها جاءت من تحت رأس القيصر، وربما بسبب البلاشفة، أو بسبب السلطة «الديمقراطية» السابقة أو الحالية وممارساتها، وربما تكون حالة انتحار جماعي يقوم بها الشعب كله. ولكن الحقيقة تبقى دائما حقيقة، وهي أن جميع مؤلفات راسبوتين فيها تلك النبرة الحزينة، والمرارة، ولوعة الفراق : فراق الوطن الذي يبحث عنه الأبطال رغم أنهم يعيشون فيه.

من هنا تأتي تلك القدرة العجيبة على «الإبكاء»، وعلى انتزاع الدموع. على جعل روح القارئ تتعذب وتنتحب وتتمزق ليس على البطل، وإنما على أوضاعه الغريبة، وعلى قيوده الوهمية وهو قابع في مصيدة وهمية أيضا ولا يمكنه أن يفك تلك القيود أو يتخلص من هذه المصيدة. فالنتين راسبوتين لا يختلق أبطالا، ولا يأتي بهم من الواقع كما هم، وإنما يصنعهم من تلك الحالة الوسط بين الاختلاق والواقع، فيجعلهم يتحدثون إلى القارئ، ويجعل القارئ يتحدث إليهم متخذا مكان أحدهم. إنه يكسر كل حدود الاتجاهات والنزعات الأدبية القديمة والحديثة: فالواقعية موجودة، وكذلك التقليدية والواقعية الاشتراكية وما بعد الحداثة وما بعد الكتابة كل تلك «الموضات» موجودة بكثافة لدى راسبوتين، ولكنها تجتمع في بوتقة واحدة لتتشكل من جديد وتأخذ شكلها الراسبوتيني المرتبط بما يسمى بـ«الرواية الروسية». الروسية فقط، وبدون إضافات أو توصيفات.

العلم والفلسفة والروح

إذا كانت عجائز راسبوتين يجتهدن بذاكرة أرضية في صنع زمن خاص جديد من خلط الأزمنة الماضية والحاضرة والقادمة تتشابك فيه كل الأشياء، فإن راسبوتين نفسه يقوم بتأسيس أزمنة جديدة يفتح فيها نافذة للمراقبة والرصد وولادة الأسئلة الجديدة أيضا. إنه يتعامل مع العلم والفلسفة بمنطق خاص، ويؤمن بأن الظواهر الغريبة موجودة رغم غرابتها لأن العلم - ببساطة - لم يتوصل بعد إلى تفسيرها. وإيمانه هذا نابع في الأساس من تعامله مع أبطاله على محورين أساسيين: الزمن والقوة، واعتقاده الراسخ بأن العلم هو الوسيلة الوحيدة القادرة على حل كل ما نراه غريبا وغير عادي. من خلال كل ذلك يقوم بوضع الإنسان أمام نفسه في مواجهة روحية عنيفة. ففي «المهلة الأخيرة» نقف أمام «لوسيا» في حيرة وعجز شديدين، لا نعرف ولا نستطيع أن نعرف أي شيء عما يدور بداخلها، ولا عن تلك القوة الانتقامية الغريبة المسيطرة عليها. وهنا يبرز تساؤل: هل يمكن تفسير تلك الحالة؟ نعم يمكن تفسيرها، ولكن ليس إلى النهاية لأن الطبيعة الإنسانية ما تزال مستعصية على الفهم حتى النهاية. فما بالك بأمنا الطبيعة!! ومن ثم نعود مرة أخرى إلى العلم، والعلم فقط. وكما قال ألبرت أينشتاين في زمنه: «... العلم ليس كتابا منتهيا، ولن يكون كذلك أبدا. كل نجاح هام يحمل في طياته أسئلة عديدة، وكل تطور يكشف مع الزمن الكثير من الصعوبات الجديدة الأكثر عمقا وتعقيدا». من هنا ندرك لماذا تأتي البدايات والنهايات عند راسبوتين مفتوحة على

الدوام. ومن ناحية أخرى نرى أن لديه ميلا واضحا إلى التأمل والتحليل، والربط بين الثنائيات المعروفة: الإنسانية والفرد، الحياة والوجود، المادي والروحي، القسوة والرحمة، الخير والشر... . وتلك المقامات الأخلاقية مجسدة بتفاوت في نماذج أبطاله وسلوكياتهم. هناك روايات كثيرة تهتم بالحركة: حركة المشهد، وحركة الأبطال، وحركة الفكرة، وحركة الزمن. وروايات أخرى تركز على ديناميكية الحركة وتغير الموقف. ولكن النص لدى راسبوتين مغاير من حيث تشكل حركة الروح التي تمثل الهم الأساسي والرئيس بالنسبة له. وكلما كانت حركتها أقوى وأشد وأنشط، كانت الحياة أكثر درامية. ولذا فهو يطرح أسئلة خاصة ربما تبدو بسيطة في ظاهرها مثل: لماذا نسبب لبعضنا البعض المتاعب والمعوقات التي تجلب لنا بدورها التعاسة والشقاء والألم؟ وإلى أي مدى سيظل الناس غرباء عن بعضهم البعض؟ وهل يمكن أن نعيش في راحة وهدوء وسكينة في حين أننا نعرف تماما أن هناك إنسانا ما غير بعيد عنا يعاني ويتعذب؟ لماذا نحاول بقدر ما نستطيع الاستفادة من مصائب الآخرين واستثمارها؟ وإلى متى سنظل نرى في الشر تحديدا عدم وجود شر؟!

في عام 2002 أصدرت دار نشر «فاجريوس» الروسية مجلدا جديدا يتضمن مجموعة من القصص الجديدة لراسبوتين. ونظرا لأن الكاتب منشغل فى السنوات الأخيرة بالعمل الاجتماعي والذي يراه جزءاً لا يتجزأ من العمل الإبداعي، أصبح قليل الإنتاج على مستوى الكم، وبالتالي جاء كتابه الأخير «إلى نفس الأرض» متضمنا بعض القصص والروايات القديمة نسبيا والتي نشرت من قبل في مجموعات أخرى مثل «المهلة الأخيرة» و«دروس الفرنسية»، وإلى جانبها «منزل ريفي» و«مهنة جديدة» و«رؤية».

القصص الأخيرة التي كتبها راسبوتين في السنوات القليلة الماضية تتضمن حالة من «الكشف» والتوغل في قاع روسيا الجديدة التي يرفضها الكاتب رغم عشقه لها. فـ«منزل ريفي» (1999) هو روسيا الواسعة بكل تناقضاتها وفي جميع مراحلها، وبالذات في السنوات الأخيرة. أما «مهنة جديدة» (1998) فهي عبارة عن تجليات الافتراق والاختلاف والتشتت والتلاشي وكل التعبيرات الدالة على «السقوط» بمعناه الفلسفي-الأخلاقي-المادي، والحديث يدور هنا عن الدولة والأرض والإيمان والتاريخ والتشريعات واليقين والأفكار.

القصص الأخرى تأتي في إطار «الشجاعة الراسبوتينية» المثيرة لإزعاج محبي الاستقرار وأنصار «ليس في الإمكان أبدع مما كان» و«كنا نريد الأفضل، ولكن حدث كما يحدث دائما»، والمفزعة للقراء الذين يسلمون أنفسهم لأبحاث راسبوتين الاجتماعية-الفلسفية مؤمنين تماما بأنه لن يقودهم إلى المجهول بقدر ما سيتجول بهم في أنحاء روسيا الواسعة كاشفا عما يحاولون إغماض عيونهم عنه بالتلفزيون والسينما والمخدرات والديسكو والفودكا.

كان راسبوتين قد حصل على جائزة سولجينيتسين الأدبية لعام 2000 في سابقة تعتبر الأولى من نوعها بالنسبة لكاتب معاصر. حيث رأت لجنة التحكيم في كلمتها أن راسبوتين يتميز بالقدرة على: «التعبير الثاقب والحاد عن شاعرية الحياة الشعبية وتراجيديتها، والجمع بين الطبيعة الروسية والخطاب الروسي، والإحساس الروحي والحكمة في نشر مبادئ الخير والجمال». أما الأسباب التي أثارت اهتمام الدوائر الأدبية الروسية والأوروبية فترجع إلى أن اسم راسبوتين، ككاتب وشخصية

اجتماعية وسياسية نشطة، مرتبط بتوجهات اجتماعية وسياسية وفكرية محددة لا تتوافق مع الأفكار والأيديولوجيات الجديدة السائدة. ومع ذلك فقد حاز قرار اللجنة على ترحيب شعبي ضخم لأن الجائزة تعبر في المقام الأول عن اختيار إبداعي-أخلاقي-قيمي. وراسبوتين، بدون شك، يعتبر أهم كاتب روسى في النصف الثاني من القرن العشرين. ولعل رواياته «المهلة الأخيرة» و«نقود لماريا» و«عش وتذكر» و«وداعا ماتيورا» أكبر مؤشر على امتزاج أدب راسبوتين وفكره الفلسفي والاجتماعي بالثقافة الشعبية الروسية. بل وتعتبر العديد من قصصه القصيرة مثل «دروس اللغة الفرنسية» و«العجوز» و«رودولفيو» وغيرها من أهم القصص التي تنتمي إلى الأدب الروسي الرومانسي، الأمر الذي جعلها إلى جانب رواياته تدخل إلى البرامج الدراسية في المدارس الروسية منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما.

حاولت وسائل الإعلام الروسية منذ بداية التسعينات، نظرا لانتماءاته الفكرية الوطنية، دفع اسمه وإنتاجه الأدبي إلى دائرة الظل. ولكن نشاط الكاتب الإبداعي والاجتماعي وقف أمام الآلة الإعلامية الروسية الجديدة بصلابة نادرة. وقامت مجلة «ناش سيفريمينك» (معاصرنا) خلال النصف الثاني من التسعينات بنشر مجموعة ضخمة من رواياته القصيرة مثل «في المستشفى» و«المفاجأة» و«منزل ريفي» و«مهنة جديدة»، الأمر الذي دفع العديد من دور النشر إلى إصدار المؤلفات الكاملة لراسبوتين في أكثر من طبعة.

في الفترة الأخيرة يحاول بعض النقاد دفع اسم راسبوتين وإبداعاته في دائرة ضيقة تحت تصنيف «الكاتب القروي» أو «كتابة القرية» وتحت

دعوى أن راسبوتين ولد في قرية، ويتناول القرية الروسية في معظم أعماله.. إلخ إلا أن الكاتب رغم استلهامه التراث الروسي، وبالذات تراث القرية الروسية لا يسجن نفسه إطلاقا في مفاهيم ضيقة أو قصيرة المدى، وإنما ينطلق (مثل تشيخوف) من الصغير والبسيط إلى الفضاء الإنساني الواسع بكل ما يحمل من مفاهيم ومضامين وحركة دائبة. ولعل الموضوع الرئيس في مجمل أعمال راسبوتين يتجلى في تصادم قيم الحياة الشعبية والتقاليد العظيمة وصراعها مع الغزو-غزو الحضارة المعاصرة. وراسبوتين هنا يدرك جيدا في أعماله الفنية أن الحضارة الحقيقية الأصيلة قديمة أم معاصرة لا يمكنها أن تصطدم بالقيم الإنسانية ولا التقاليد، وإنما يقصد بالذات الحضارة الديماجوجية المزيفة بكل ما تحمل من سطحية وابتذال وتخلف رغم بريقها ورونقها.

ولعل راسبوتين يسبب إزعاجا للنقاد الروس الجدد الذين ارتاحوا مثل زملائهم القدامى إلى التساؤلات القديمة العامة والشمولية من قبيل «ما العمل؟»، و«إلى أين؟»، و«ما الموضوع؟» .. إن راسبوتين يطرح أسئلة محددة من قبيل «ما العمل في هذا الموضوع؟»، و«إلى أين نتجه الآن؟»، و«ما الموضوع المتعلق بهذه الفكرة تحديدا؟»، و«هل تشعر بالخجل عندما تجرع الفودكا كالخنازير وهم يبيعون مصانع الألومينيوم في سيبيريا لرجال الأعمال الإسرائيليين؟»، و«ألا تخجل من نفسك عندما تدخن الماريجوانا والعلماء فى أكاديمية العلوم ينتحرون؟» ..!

د. أشرف الصبَّاغ